فقه السنن الربانية

ومدى إفادة المسلمين منها

قراءة في فكر الإمام محمد عبده

تأليف

أ. د رمضان خميس زكي الغريب

روائع الفكر الإسلامي
نُخَاطِبُ العَقلَ والقَلبْ





https://www.facebook.com/1223379817835234/

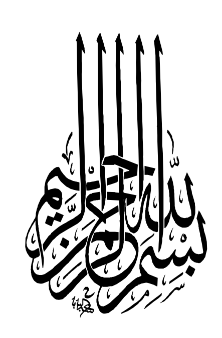
دراسات في السنن الإلهية

فقه السنن الربانية
ومدى إفادة المسلمين منها
قراءة في فكر الإمام محمد عبده

د. رمضان خميس زكي الغريب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد في قسم أصول الدين
كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر، القاهرة

تقديم

الدكتور وصفي عاشور أبو زيد



الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع: / ٢٠١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَـبْلِكُمْ سُـنَنٌ
فَسِيرُوا فِـي الأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَـيْـفَ
كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَـذَا بَيَـانٌ
لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ"

[آل عمران: ١٣٧]

تقديم

بقلم الدكتور وصفي عاشور أبو زيد

الحمد لله رب العالمين؛ حمدًا يليق بجلال وجه وعظيم سلطانه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه، ورضي الله عن آل بيته رسول الله ﷺ وعن أصحابه وأتباعه، والسالكين سبيله، والداعين بدعوته إلى يوم الدين، وبعد،،

فإن الله تعالى حين خلق الكون وخلق الخلق وأرسل الرسل وأنـزل الكتب وشرع الشرائع بنى هذا كله على سنن ونواميس ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحدًا، من اعتبرها وأعملها انتصر وظهر حتى لو كان كافرًا ملحدا، ومن أهملها وأعرض عنها تأخر وتقهقر حتى لو كان وليًّا مؤمنا.

ومن أبرز هذه السنن: سنة الله في التدافع، وسنة الله في إهلاك الأمم، وسنة الله في مكر المجرمين وأكابرهم، وسنة الله في النصر والتمكين، وسنة الله في عاقبة الظلم والظالمين، وسنة الله في الهداية، وسنة الله في الإملاء للكافرين، وسنة الله في إيتاء الملك ونـزعه،

وسنة الله في جعل العاقبة للمتقين، وسنة الله في الاستخلاف والاستبدال، وسنة الله في تداول الأيام، وغيرها من السنن.

وعلم "السنن الإلهية" أو "السنن الربانية" من العلوم التي تأخر المسلمون في الحديث عنها، وإعمالها وتفعيلها وتشغيلها، وإفساح المجال أمامها لتسهم بدورها في نهضة المسلمين وتقدمهم، واتساقهم مع الكون والحياة والأحياء من حولهم، رغم اهتمام القرآن الكريم بالسنن واتساع مجالها فيه، ورغم رعاية النبي ﷺ لها بما لا يخفى على القارئ العادي لسيرته الشريفة وأقواله الصحيحة، ورغم عناية الصحابة والتابعين لها في أقوالهم وأفعالهم، رضي الله عنهم.

وحسبنا أن الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي أورد (في المعجم المفهرس: ٤٥١. طبعة دار الحديث) من صيغ ورود السنن الربانية في القرآن الكريم – سنن، وسنة الأولين، وسنة الله، وسنتنا – "ستة عشر" موضعًا، وإذا ما ذهبنا إلى إحصاء معانيها وآثارها ومقتضياتها في القرآن الكريم، فسوف نجد أنفسنا أمام مفاجآت كبيرة، إذا ما قارنا مساحة أو مجال السنن الربانية والكونية في القرآن الكريم بمدى اهتمام المسلمين وعلمائهم بهذا العلم.

وإذا كان الإمام محمد عبده يرى أن المسلمين "لَم يقصروا في

شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحث على الاعتبار بها". وذلك لأسباب عديدة، فإن الغرب قطع شوطًا كبيرًا وبلغ شأوًا بعيدًا في تفعيل هذه السنن في الحياة ومع الأحياء، فظهر علينا، وسبقنا في العلم والعمل والحضارة؛ رغم أن البضاعة بضاعتنا، والانطلاقة من أصولنا، ونحن أحق بها وأهلها!..ومع هذا فلن يكون العلم بالسنن تامًا وفاعلا فاعلية كاملة في حياة البشر إلا إذا حالف هداية السماء.

على أنه من الْمُطَمْئن أن علماء المسلمين بدأوا في الاهتمام بعلم السنن، ورأيت فيها كتابات لا بأس بها؛ كمًّا وكيفًا، مما يبشر بمستقبل منشود من خلال إعمال هذه السنن وتفعيلها في حياة المسلمين، ومن هذه الكتابات:

١- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم/ محمد الصادق عرجون.
٢- السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات/ عبد الكريم زيدان.
٣- السنن الربانية في التصور الإسلامي/راشد سعيد شهوان، رسالة دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن

سعود، كلية الشريعة، قسم الثقافة الإسلامية.

٤- حجية السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم/ د. مصطفى الشكعة.

٥- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك/ شريف صالح الخطيب، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، فرع العقيدة.

٦- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها/ محمد هيشور، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب.

٧- السنن التاريخية في القرآن/ محمد باقر الصدر.

٨- السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم جمعا ودراسة/ أيمن بن نبيه بن غنام المغربي/ ماجستير بجامعة أم القرى، كلية أصول الدين، قسم الكتاب والسنة.

٩- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين/ عبد الله التليدي.

١٠- عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة الأعراف/ فايز صالح الخطيب، رسالة ماجستير، كلية أصول

الدين، الأزهر.

١١- السنن الإلهية في النفس البشرية/ عمر أحمد عمر.

١٢- السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم/ كشاف موضوعي/ زينب عطية محمد.

١٣- السنن الإلهية والمسلم المعاصر/ علي بن إبراهيم الوزير.

١٤- السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي/يوسف إبراهيم يوسف.

١٥- جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم من خلال مفهوم السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع البشريين/ د. الطيب الوزاني.

١٦- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم/ مجدي محمد عاشور.

بالإضافة إلى عدد كبير من الأبحاث والمقالات.

ومن المناطق البكر في هذا العلم التي لم تطأها أقدام المؤلفين، والصفحاتِ البيضاء التي لم تسوِّدْها أقلامهم - حسب علمي - علاقة علم السنن - كعلم - بغيره من العلوم، مثل علم الاجتماع والعمران، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم التاريخ والحضارة،

وعلم الفلسفة والمنطق، وعلوم الشريعة، والعلوم الإنسانية، بل علوم الحياة والأحياء بشكل عام.

ومن المناطق البكر - كذلك - رسم الطرق العملية، والوسائل التطبيقية، والأوعية الواضحة لتفعيل علم السنن في حياة المسلمين، لكي ينتقلوا من التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الركود إلى الشهود.

ومن المناطق المهمة التي تحتاج لتناول كذلك في هذا السياق، دور علم السنن في استشراف المستقبل، ومدى إسهام علم السنن مقارنة بغيره من الأدوات في فقه التوقع أو ما يسميه المعاصرون بـــ "علم الاستراتيجيات"، ورسم المستقبل للأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم والإنسانية كلها، ومدى درجة اليقين أو الظن في هذا التوقع أو الاستشراف، وذلك باعتبار قوانين الله في الكون والخلق معايير ثابتة ومطردة وحاكمة وشاملة؛ بحيث إذا تخلفت وأُهملت تخلف مقتضاها، وإذا حَضرت وأُعمِلت حضر مقتضاها، فهي تدور مع مقتضاها إعمالا وإهمالا.

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ: "فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها، قراءة في فكر الإمام محمد عبده"، هو للأستاذ الدكتور رمضان خميس الغريب، الذي ضرب بسهم وافر في هذا

العلم بما سيذكره له التاريخ ويعرفه له، وحسبُك أن تعلم أن هذا هو المؤلف الثاني له في هذا العلم، بعد مؤلفه الأول الذي وضعه تحت عنوان: "مفهوم السنن الربانية، دراسة في ضوء القرآن الكريم"، الذي قال عنه المفكر الإسلامي الكبير د. محمد عمارة في تقديمه له: "إنه من أوفى الدراسات التي عرضت لهذا المبحث، ومن أدق هذه الدراسات..حتى إنه لينبئ بميلاد كاتب واعد، وباحث يشق طريقه بجدارة ملحوظة في حياتنا الفكرية والعلمية"..

بل إنني أحسب أن كتابه الأول يمثل أبعاد النظرية القرآنية للسنن الإلهية؛ حيث تناول مفهومها في لسان العرب والقرآن الكريم والسنة المشرفة، وخصائصها، وحجيتها، ومواردها، وصيغ ورودها في القرآن، ومنهجية التعامل معها، والعلاقة بينها وبين السنن الكونية.

وقد تميزت الدراسة التي نقدم لها اليوم بالنفَس الهادئ، والتناول الموضوعي، الذي تشعر معه بالانسيابية، والراحة النفسية والعقلية؛ حيث تُفضي كلٌّ فكرة إلى ما بعدها، ويُسلِّم كلٌّ مبحث إلى الذي يليه...

كما أنه أورد قضايا جدلية نظرية مهمة في التصور الإسلامي بشأن هذه السنن - بما أن السنن قواعد صارمة وحاكمة، ومعايير مطردة وشاملة - وهي: علاقة السنن الربانية بالمشيئة الإلهية،

وعلاقتها بالإرادة البشرية، وعلاقتها بالسنن الكونية، وعلاقتها بالأسباب، وكيف أن إدراك هذا كله هو طريق إلي معرفة الله تعالى، وعمق اليقين في الإيمان به، ومسلك من مسالك حسن توحيده وعبادته، وأن إدراك الإنسان لهذا جميعا يجمع له سعادة الدارين، وهذا كله في ضوء فكر أحد رواد هذا العلم والنهضة الإسلامية المعاصرة، إنه حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده.

ومن الجدير بالذكر أنه ذكر عن الإمام خمسة وثلاثين سُنة من سنن الله تعالى في فكره؛ عناوينَ فقط، جمعها من مواضع عديدة من تفسير المنار، ثم قال: "وهذه الرؤوس الموضوعية غيض من فيض، وقل من كثر، مما كتبه الأستاذ الإمام، وسجله السيد رشيد رضا حول موضوع السنن".

وإنني لأتطلع من المؤلف الكريم – وهو لذلك أهل إن شاء الله – أن يواصل العطاء في هذا العلم: تأصيلا وتفصيلا، وتنظيرًا وتنظيمًا، وتفعيلاً وتطبيقًا، وتسخيرًا وتوظيفًا، وتكميلاً وتتميمًا، ومدارسة وممارسة، وبخاصة في المناطق التي أشرتُ إليها قبل قليل؛ لأن هذا العلم من الأعمدة الأصلية والأصيلة على طريق نهضة أمتنا، وإسعاد البشرية جميعا.

وما كان لي أن أقدم كتابًا يكتبه فضيلة الأستاذ الدكتور رمضان

خميس الغريب - وهو، وإن كانت تجمعنا به أرحامُ الإسلام والعلم والدعوة، أكبر مني سنًّا، وأوسع مني علمًا، وأعظم مني بلاء، أحسبه كذلك والله حسيبه - ولكنني لم أستطع رد طلبه أو التأخر عن تلبية رغبته؛ وذلك لشدة حيائه، وحسن خلقه، وطيب معشره، ولين جانبه، وفرط تواضعه، الذي أبى عليه إلا أن يجعلني ضيفًا مُكرَّمًا على كتابه، ومُشرَّفًا بتقديمه، وهو لا يحتاج إلى تقديم؛ فحسْبُ الكتاب أن يُتوَّجَ باسمه الكريم.

أسأل الله أن يكتب لكتابه - وكلِّ ما يكتب - القبول الحسن عند الله، والتغيير للأحسن عند الناس، وأن يوفقه في حياته العلمية، وينفع به البلاد والعباد، وأن يجمعنا في الدنيا على طاعته، وفي الآخرة في مستقر رحمته ودار كرامته، إنه نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير، وهو على كل شيء قدير، والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو الله

وصفي عاشور أبو زيد

الكويت

٢٠ رمضان ١٤٣٢هـ

٢٠ أغسطس (آب) ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله وأصلى وأسلم على رسول الله محمد (ﷺ) وآلـه ومـن والاه، وبعد فهذه أوراق كتبتها عن قضية وإمام، أما القضية فهى (السنن الربانية فقهها ومدى إفادة المسلمين منها)، تلك القضية الـتى لم تأخذ حقها من كتابات المفسرين، قدامى ومحدثين، إلا إلماحـا ت سريعة وإشارات خافتة وسط حشد هائل من قواعد فنية، ومـسائل كلامية، لعلها صلحت لعصور مضت، وأزمنة خلت، وكان ينبغـي أن تذهب مع من ذهبوا ممن كتبت عنهم من فرق وطوائف كانت فى عصور غير عصورنا، وبيئات غير بيئاتنا، و لم يلتفت إلى قضية السنن، الماضية والقوانين الحاكمة والنواميس التى تحكم سلوك الناس إلا فئـة قليلة، تكاد تعد على أصابع اليدين وكان من أبرزهم حجة الإسـلام الإمام الغزالي، وجمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمـد عبـده، ومدرسته الإصلاحية التى نسجت على منواله وسارت على دربـه، ورغم خطورة هذه القضية، ومسيس حاجة المسلمين إليها إلا أنها لم تأخذ من فكر المسلمين إلا النذر اليسير الذى لا يتناسب مع قيمتـها وخطرها.

وأما الإمام فهو حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده، الـــذي لم يأخذ حقه أيضا فى حياته، ولا بعد مماته، بالقدر الذى يتناسب مع ما قدمه لهذه الأمة من إصلاح وتنوير، وثورة على الجمود والتقليـــد والبعد عن هدايات القرآن التى تتجدد ولا تتبدد؛ ففي حياته ابتلـــى بالتنكر لفكره الذى كان ثورة على الجمود والسكون والتقليد،وبعد وفاته لم يأخذ حقه بالقدر الذى يليق به.

وهذه الفكرة تتأكد لدى أى دارس لتراث الأستاذ الإمـــام فإنـــه سيجد نفسه أمام مصلح من طراز فريد، جمع بين ثقافة التراث هضما ووعيا، وثقافة العصر انتخابا وأخذا، فكان تلاقحا ثريا يثمر ويورق ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه.

وهذه الأوراق لمحة من لمحات الوفاء أكتبها عن هذا الإمام وقضية من قضايا التجديد فى الدراسات القرآنية لديه.

وصاحب الفضل فى هذا التوجه مكتبة الإســـكندرية والقـــائمون عليها إذ وصلتني منهم دعوة كريمة للكتابة عن هذا الإمام فى زاويـــة من زوايا فكره التفسيري فلهم كل الفضل والعرفان ولقد ســـارعت بتلبية الدعوة التى اعتبرتها أمرا صادف رغبة وأتى فى وقتـــه فكـــان كالغيث المغيث صادف أرضا جرزا فاهتزت وربت فأحياها الـــذى يحيى الموتى إن ربى على كل شيء قدير، وقد سميت هـــذه الدراســـة

(السنن الربانية فقهها ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده).

هذا وقد قسمتها بعد المقدمة إلى أحد عشر مبحثا وخاتمة:

المبحث الأول الأستاذ الإمام وعلم السنن عناية وتعريفا.

المبحث الثانى أهمية دراسة علم السنن والآثار المترتبة على إهمالها فى نظر الأستاذ الإمام.

المبحث الثالث موقف المسلمين من السنن بين الإعمال والإهمال فى فكر الأستاذ الإمام.

المبحث الرابع: عناية النبي (ﷺ) والصحابة بعلم السنن فى نظر الأستاذ الإمام.

المبحث الخامس: خصائص السنن الربانية فى فكر الأستاذ الإمام.

المبحث السادس: العلاقة بين السنن الربانية والمشيئة الإلهية فى نظر الأستاذ الإمام.

المبحث السابع: العلاقة بين السنن الربانية وحرية الإرادة.

المبحث الثامن: العلاقة بين السنن الربانية والسنن الكونية.

المبحث التاسع: العلاقة بين السنن الربانية والأسباب.

المبحث العاشر: موارد السنن الربانية فى نظر الأستاذ الإمام.

المبحث الحادي عشر: الإنسان بين إدراكه للسنن وتوظيفه لها في فكر الأستاذ الإمام.

ثم كانت الخاتمة التى أسأل الله حسنها، ثم فهرس لأهم المـــصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات وأسأل الله -تعالى- أن يجزى القائمين على مكتبة الإسكندرية خير الجزاء، وأن ينفعنا بتراث أسلافنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

كتبه أفقر الخلق إلى عفو مولاه
رمضان خميس الغريب
١٢/من شهر رمضان المعظم ١٤٢٦هـ
١٥/١٠/٢٠٠٥م
حائل- المملكة العربية السعودية

المبحث الأول
الأستاذ الإمام وعلم السنن عناية وتعريفا

الناظر فى حياة الإمام محمد عبده ووجهته الإصلاحية يجد أن حديثه عن السنن وتوظيفها، وإحسان التعامل معها، ليس غريبا فهو بتركيبته العقلية المصلحة مؤهل لهذا الإدراك؛ هذه التركيبة التى جعلته فى بداية حياته يثور على نظام التعليم القائم، هذا التعليم العقيم الذى يخرج منه الدارس دون أن يفيد شيئا، وتتوالى الأجيال على دراسة جامدة، لا يجرؤ واحد منهم على انتقاد نظام التعليم القائم، ولا يجرؤ على الدعوة إلى إصلاحه، حتى اصطدم الأستاذ الإمام بهذا النظام التعليمي، فما اتهم نفسه وقدرته وإنما صاح صيحة النذير العريان بأن هذه الطريقة فى التعليم طريقة جامدة غير منتجة وما ذلك إلا لتوازن الأمور فى عقله وصحة الإدراك فى ناظريه، والناظر فى مواقفه في الإصلاح يجد هذه الشواهد المتكاثرة التى تفرز فى النهاية هذا العطاء فى جانب من أعظم جوانب هدايات القرآن وهو جانب الإصلاح والتغيير وجانب إدراك السنن الربانية التى تعد قانونا لهذا الإصلاح والتغيير. لقد أسهم الأستاذ الإمام في وضع منظومة علمية وإصلاحية متكاملة "فساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود وشارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر وبعث الوطنية

وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية[1]".

ومن أبرز الشواهد علي اهتمامه بعلم السنن وجعله ضمن منظومته الفكرية والإصلاحية ما يلي:

١- منهجه فى العروة الوثقى وعلاقته بالحديث عن السنن:

لقد انتحى الأستاذ الإمام مع السيد جمال الدين الأفغانى فى كتابة مقالات العروة الوثقى منحى يؤكد وجهتهما فى الإصلاح ووقوفهما على كثير من سنن الله تعالى فى كونه ونواميسه فى عباده فقد أيقظت العروة الوثقى كما وصف السيد رشيد رضا هذه المقالات بأنها كالماس الكهربائى الذى تضاء به عقول قارئيها إنها تؤثر فى نفسه وشخصه حتى يخرج من طور إلى طور، ويصف السيد رشيد رضا العروة الوثقى[2] ومقالاتها وكيف نقلته من حال الانعزال والانطواء إلى حركة هادرة وعمل موار بقوله: (كنت من قبل اشتغالى بطلب العلم فى طرابلس الشام، مشتغلا بالعبادة، ميالا إلى التصوف، وكنت

١- مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤٢٦هـ ج٨ السنة ٧٨ ص١٣٤٦ من مقال د.علي جمعة.

٢- العروة الوثقى أنشأها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس ١٣١٠هـ عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر.

أنوى بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه؛ لأجل الرغبة فى الآخرة، والزهد في الدنيا، ولما رأيت نفسى أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلـــم – على قلته صرت أجلس إلى العوام في بلدنا، أعظهم بالقرآن، مغلبـــا الترهيب على الترغيب، والخوف على الرجاء، والإنذار على التبشير، والزهد في الدنيا على القصد والاعتدال فيها،حتى ظفرت بنسخ مـــن جريدة العروة الوثقى فى أوراق والدي، فأثرت في قلبي تأثيرا شديدا، ودخلت بها فى طور جديد من حياتي، وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات، في الاستشهاد والاستدلال علـــى قـــضاياها بآيـــآت الكتاب، وماتضمنه من تفسيرها، مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة، ومدارهم في الفهم[1]، ويوضـــح السيد رشيد رضا أن منهج العروة الوثقى انفرد بأشياء لم يحم حولها أحد من المفسرين السابقين ولخص ذلك فى ثلاثة أمور هى:

١- بيان سنن الله تعالى فى الخلق، ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقي الأمم وتدليها، وقوتها وضعفها.

٢- بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان، وجمع بين سعادة الـــدنيا وسعادة الآخرة، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني، و اجتمـــاعي، ومدني وعسكري وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظـــة علـــى

١- تفسير المنار ١١/١.

الشريعة العادلة، والهداية العامة، وعزة الملة، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة.

٣- بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم، فهم إخوة، لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة"[١].

ويؤكد هذا المعنى فى موطن آخر فيقول: "إن مسلك جريدة العروة الوثقى فى الدعوة إلى الإصلاح الإسلامى من طريق إرشاد القرآن وبيان سنن الله تعالى فى الإنسان والأكوان قد فتح لى فى فهم القرآن بابا لم يأخذ بحلقته أحد من المفسرين المتقدمين فهناك فرق بين فهم الأستاذ الإمام وأستاذه الحكيم للقرآن وبين أفهام المتقدمين الذين كانت حظوظهم من تفسير الآية كتابة سطرين أوبضعة أسطر أكثرها فى غير سبيل هدايتها"[٢] ويسوق السيد رشيد رضا تفسير الأستاذ الإمام لقوله تعالى: (**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**)[٣]، مؤكدا بها ما يذهب إليه من جودة فهم الأستاذ الإمام واعتنائه بعلم السنن، ذاكراً أن هذا التفسير نشر فى جريدة العروة الوثقى العدد السابع عشر ذى الحجة ١٣٠١ بعنوان سنن الله فى

١- المنار ١/١١.
٢- انظر تفسير المنارج١٠ ص٣٦.
٣- الرعد آية ١١.

الأمم وتطبيقها على المسلمين.

وشاهد القول: أن الأستاذ الإمام منذ بدايات دعوته فى الإصلاح يضع سنن الله تعالى فى ذهنه، فإن الإصلاح والتغيير بني على نواميس ثابتة، وسنن ماضية، لا تتخلف ولا تتأجل، وهذه النظرة السننية إلى الحياة وضوابطها هى النظرة الحية التى تنقل سامعها وقارئها من طور إلى طور، كما صنعت فى السيد رشيد رضا فجعلته ينظر إلى القـــرآن وهداياته نظرة جديدة، بدل أن يكون القرآن كتاب وعظ وترهيـــب فحسب، أصبح في نظره كتاب هداية ومنهج إصلاح وبنـــاء حيـــاة دينية ومدنية وعسكرية واجتماعية.

٢- تفسير المنار وتناوله للسنن:

من المعلوم أن تفسير المنار الذى دونه السيد رشيد رضا يقـــوم فى لحمته وسداه على فكر الأستاذ الإمام، وهو ماجرى عليه فى تفـــسيره الذى كان يلقيه دروسا فى الأزهر، ويدونها السيد رشيد، ويعرضها في جملتها وتفصيلها على الأستاذ الإمام، يقول السيد رشيد- مبينا صـــلة تفسير المنار بالأستاذ الإمام ودوره فى هذا التفسير: "كنت أكتب أثناء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه، وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ، وكنت أولاً أطلـــع الأستاذ الإمام على كل ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك، بعـــد جمـــع

حروفه فى المطبعة وقبل طبعه، وكان ربما ينقح فيه بزيـــادة قليلـــة، أو حذف كلمة أو كلمات، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيا بالمكتوب، بل معجبا به، على أنه لم يكن كله نقلا عنه معزوا إليه، بل كان تفسيرا للكاتب من إنشائه اقتبس فيه مـــن تلـــك الدروس العالية جل ما استفاده منها، ولما كان- رحمه الله- يقرأ كـــل ما أكتبه، إما قبل طبعه وهو الغالب، وإما بعده وهو الأقـــل، لم أكـــن أرى حرجا فيما أعزوه إليه مما فهمته، وإن لم أكن كتبته فى الـــدرس؛ لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو"[1]، وإذا ثبت لنا هذا وتأكد لدينا فإن خلاصة تفسير المنار هى فكر الأستاذ الإمام، والناظر لأول وهلة لفهارس المنار يجد إلى أي مدى اعـــتنى الأســـتاذ الإمـــام وتلميذه بعلم السنن، فما نجد جزءا إلا وفيه قضية من قضايا الـــسنن: شرحا لها، أو إرشادا إلى كيفية التعامل معها، أو إلماحـــا إلى إحـــسان توظيفها، بل لا أكون مبالغا إذا قلت: إنه لا تمر صفحة من صـــفحات المنار إلا وفيها حديث عن السنن، طويل أو قصير، إن دل هذا علـــى شئ فإنما يدل على عناية الأستاذ الإمام بعلم السنن، ولفـــت أنظـــار المسلين إليه، وسنرى في هذه الدراسة ثبتا بأهم السنن التي اســـتخرجها الأستاذ الإمام عند تناوله لتفسير آيات القرآن الكريم.

١- المنار ج١ ص١٤ ،١٥، وانظر ج٢ ص٣٩٥ .

٣- وصف تفسير المنار وعلاقته بعلم السنن:

ومما يدل على اهتمام الأستاذ الإمام بعلم السنن وصف تفسيره بهذا الوصف الذى يدل على عمق تناوله لعلم السنن، وأنه جانب هام من جوانب عنايته، إذ يصفه السيد رشيد بقوله: "هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، الذى يبين حكم التشريع، وسنن الله فى الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه فى الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده"[1] والذى ينظر في هذا الوصف لتناول الأستاذ الإمام للتفسير يجد اهتمامه بعلم السنن، وتطبيقها علي المسلمين كان جانبا كبيرا من جوانب تفسيره، أخذ قدرا من دعوته الإصلاحية المرتكزة على القرآن الكريم وهداياته.

٤- الاعتبار بالسنن أصل من أصول الإسلام في نظر الأستاذ الإمام:

لقد عد الأستاذ الإمام الاعتبار بالسنن أصلا من أصول الإسلام، وهو يقارن بين الديانتين: المسيحية والإسلام عندما كتب رده الشهير

١- صفحة الغلاف من كل أجزاء المنار.

على الكاتب المسيحي، صاحب مجلة الجامعة الذي اتهم الإسلام بمعاداته للعلم والمدنية، فذكر الإمام أن "من أصول الإسلام التي وضعها لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام، وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها أصل العبرة فيمن مضى ومن حضر من البشر، وفي آثار سيرهم"[1]، وذكر أن هذا الأصل يناقض ما قامت عليه النصرانية من الخوارق المنافية لقيام الكون على قوانين ثابتة، وأسس راسخة وفي ذلك ما فيه، من تعطيل الفكر، وتجميد العقل، وحجبه عن ربط الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها.

إلى هذا الحد يصل اعتناء الشيخ بعلم السنن واهتمامه بها.

تعريف السنن لدى الأستاذ الإمام:

وقد عرف الأستاذ الإمام السنن ضمن اهتمامه بالحديث عنها فقال: "السنن: جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة، والسيرة المتبعة، أو المثال المتبع، قيل إنها من سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المتبعة بالماء المصبوب؛ فإنه لتوالى أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد، وقد جاء ذكر السنن في مواضع من الكتاب العزيز كقوله في سياق أحكام القتال وما كان في وقعة بدر: "**قُل**

١- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٤ - وانظر ص٢٢ ،٢٣ ط - مكتبة صبيح بدون تاريخ.

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِين)[1]، وقوله في سياق أحوال الأمم مع أنبيائهم: (**وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ)**[2]، وقوله في سياق دعوة الإسلام: (**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)**[3]، وقوله في مثل هذا السياق: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)**[4]، وصرح في سور أخرى كما صرح هنا بأن سننه لاتتبدل ولا تتحول، كسورة بني إسرائيل، وسورة الأحزاب، وسورة الفتح[5]"، ويعقب -رحمه الله - على هذا الاهتمام القرآني بالسنن وورودها فيقول: هذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان"[6]، وعرف الأستاذ السنن في موضع آخر بقوله: "السنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار،

١- الأنفال: ٣٨.
٢- الحجر: ١٣.
٣- الإسراء: ٧٧ .
٤- فاطر: ٤٥.
٥- تفسير المنار ج٤ ص/١١٥،١١٦ ، ٨/٣٠.
٦- السابق ج٤ ص١١٦.

وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها بـــالقوانين[1]، وقـــد تناول الأستاذ الإمام كجانب تطبيقي لهذا الاهتمام عدداً من الـــسنن نبه عليها وتناول الحديث عنها.

جوانب تطبيقية من علم السنن عند الأستاذ الإمام:

١- سنة الله في إيتاء الملك ونـــزعه ٣/٢٢٢.

٢- سنة الله فيمن اتبع هواه وأخلد إلى شهواته ٩/٣٤١.

٣- سنة الله فيما يغفره ومالا يغفره ٥/١٢٢.

٤- سنة الله في الانتخاب الطبيعي ٨/٦.

٥- سنة الله في جعل العاقبة للمتقين ١٢/٢٠٠.

٦- سنة الله في عاقبة الجهل ٩/٣٧٧.

٧- سنة الله في وارثي الأمم وحالهم اليوم ٩/٤٨٣.

٨- سنة الله في إهلاك الأمم ١٢/٢٠٤.

٩- سنة الله في مكر أكابر المجرمين ٨/٢٩.

١٠- سنة الله في النصر ٢/٣٩٣.

١١- سنة الله في التدافع ٢/٣٩٤.

١٢- سنة الله في تمييز الخبيث من الطيب ٤/٢٠٨.

١٣- سنة الله في اختلاف الأمم ١٢/٢٠٥.

١- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية طـ مكتبة صبيح، صـ٥٤.

١٤- سنة الله في تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح ٢٠/١٢.
١٥- سنة الله في ضلال الفاسقين ١٩٩/١.
١٦- سنة الله في إصلاح النفوس ٥٦/٣.
١٧- سنة الله في عاقبة الظلم ١٧/٣.
١٨- سنة الله في الهداية ٢٩٩/٣.
١٩- سنة الله فيمن لا تقبل توبتهم ٣٦٧/٤.
٢٠- سنة الله في الإملاء للكافرين ٢٣٧/٤.
٢١- سنة الله في التداول الحضاري ١٢١/٤.
٢٢- سنة الله في الأسباب والمسببات ١٧٩/٥.
٢٣- سنة الله في الجزاء ٣٤٣/٥.
٢٥- سنة الله في عقاب معاندي الرسل ٢٥٧/٧.
٢٦- سنة الله في المقلدين ٢٩٠/٧.
٢٧- سنة الله في السعادة والشقاوة ٢٢٣/٨.
٢٨- سنة الله في أكابر المجرمين مع المصلحين ٤/٨.
٢٩- سنة الله في السابقين إلى الإصلاح ٤٤٩/٨.
٣٠- سنة الله في سوء عاقبة الماكرين ٣٠/٨.
٣١- سنة الله في ولاية الظالمين بعضهم لبعض ٧٨/٨.
٣٢- سنة الله في عداوة شياطين الإنس والجن للرسل ٥/٨.

٣٣- سنن الله وحكمه في قصص الأنبياء ٩/١٤.

٣٤- سنة الله في أول من اتبع الأنبياء ١٠/٤١٠.

٣٥- سنن الله في الطبائع والغرائز ١٢/١٩٧.

وهذه الرؤوس الموضوعية غيض من فيض، وقل من كثر، مما كتبه الأستاذ الإمام، وسجله السيد رشيد رضا حول موضوع السنن، وقد حرصت علي جمع هذا الثبت بهذه الموضوعات لأنها هي التي تصلح لأن تكون فكرًا مستقلة، أما حديثه عن السنن ومفهومها فأكثر من أن تحويه هذه الصفحات المعدودة، وتلك الكلمات المحدودة، وأرى في ذلك فرصة لأهيب بالباحثين والدارسين في مجال الدراسات القرآنية لأن يمعنوا النظر في تراث الأستاذ الإمام.

* * *

المبحث الثاني
أهمية دراسة السنن الربانية
والآثار المترتبة على إهمالها

النظر في سنن الله تعالى في خلقه، وقوانينه في عباده، وتوظيفها، وإحسان التعامل معها، ضرورة وفريضة، فهي ضرورة للواقع المعيش الذي يحياه المسلمون، فقد أصبح البون بينهم وبين عدوهم في الإدراك والتوظيف وإحسان التعامل شاسعاً، والفرق واسعاً، حتى صارت خير أمة أخرجت للناس تصنف على أنها دول نامية، أو عالم ثالث، أو بتعبير أكثر صراحة "الدول المتخلفة"، وليست هذه الأوصاف لفقدان الموارد والطاقة، أو لقلة المهارات والإمكانات، ولكن لهذا الغياب عن عالم الشهادة، بما يموج به من صراعات فكرية وثقافية، تعتمد على أصول، وترتكز على أسس، وتنطلق من قواعد ثابتة.

كما أن دراسة السنن وتدوينها وتوظيفها فريضة دينية، لهذه الأوامر الصادقة، التي تهيب بالمسلمين أن يسيروا في الأرض، ويمشوا في مناكبها، ويعتبروا بأحوال الماضين. إن المسلمين ما قصروا في شيء تقصيرهم في هذا العلم الذي كان النبي ﷺ والصحابة الكرام من

السابقين إلى إدراكه والتعامل معه.

يقول صاحب الإحياء وهو يقسم العلم إلى أقسام محمودة ومذمومة: (وأعلى أقسام العلم المحمود العلم بالله وبصفاته وأفعاله وسننه في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى مادة الآخرة)[1]، ويؤكد -رحمه الله- على أن كل جهد يبذل في سبيل هذا العلم قليل جداً بالنسبة إلى قيمته وثمنه وفائدته بقوله: (وبذل المقدور فيه إلى أقصى غايات الجهد قصور عن حد الواجب؛ فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم، ويؤكد على أن خوضه والانتفاع به يحتاج إلى عزما ت الرجال وعقول المفكرين، وجهاد الصابرين بقوله: "وما خاض أطرافه إلا الأنبياء الأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاهم، بحسب اختلاف قوهم وتعاون تقدير الله- تعالى- في حقهم، وهذا هو العلم المكنون، الذي لا يسطر في الكتب، ويرشد إلى أدوات الوصول ووسائل الإدراك لهذا العلم بقوله: ويعين على التنبيه له: التعلم، ومشاهدة أحوال علماء الآخرة، هذا في أول الأمر، ويعين عليه في الآخرة... أي في

١- إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ٤٥ ، ط١ للغزالي، ط: عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ

آخر الأمر... المجاهدة والرياضة، وتصفية القلب وتفريغه من علائـــق الدنيا، والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء، ليتضح منه لكـــل ســـائح إلى طلبه بقدر الرزق، لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عـــن الاجتـــهاد؛ فالمجاهدة والرياضة مفتاح الهداية لا مفتاح لهـــا ســـواه"[1]، هـــذه الكلمات من حجة الإسلام تحتاج إلى مدارسة ومذاكرة حتى يعـــي المسلمون مطالبها وغاياتها ويدركوا قيمة هذا العلم الذي عده الإمام الغزالي –رحمه الله– من أعلى أقسام العلم المحمود.

١- وجوب تدوين علم السنن:

ونرى الإمام محمد عبده –رحمه الله– يؤكد على هـــذه النظـــرة الداعية إلى دراسة علم السنن وتدوينه، وتأصيل علم الاجتماع علـــى قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول: "إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن جعل هذه السنن علماً من العلـــوم المدونـــة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة، على أجمل وجه، فيجب علـــى الأمة في مجموعها أن يكون لهم قوم يبينون لهم ســـنن الله في خلقـــه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل؛ عملاً بإرشاده، كالتوحيـــد، والأصول، والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعهـــا،

١- إحياء علوم الدين جـ١ ، ص ٤٥ .

والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لاجتلائها ومعرفة حقيقتـــها"[1]، ويرد اعتراضا قد يرد بأن الصحابة لم يدونوا هذا العلم فيذكر أنهم لم يدونوه كما لم يدونوا باقي العلوم، ولكنهم كانوا يدركونه ويحسنون توظيفه في النصر والحرب والتجارب، وإن لم يسموه باسمه، فليـــسمه الناس علم السنن، أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينيـــة، فـــلا حرج في التسمية. وعندما يتحدث -رحمه الله- عن أقسام التفـــسير يذكر أن لها مراتب أعلاها لا تتم إلا بأمور، ومن أبرز هذه الأمـــور وتلك الوسائل: "العلم بأحوال البشر" "فقد أنـــزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه كثيراً من أحوال الخلـــق وطبـــائعهم، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عـــن الأمـــم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر، في أطوارهم وأدوارهم، ومناشيء اختلافهم من قـــوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ويذكر أن القـــرآن نفسه دعا إلى هذا العلم والانتفاع به بقوله: "لقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم، والسنن الإلهية وعن آياتـــه في الـــسماوات والأرض وفي

---

١ - المنار جـــ ٤ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

الآفاق والأنفس وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً "[1]، ويؤكد –رحمه الله– على أن العلم بالسنن أعظم العلوم وأعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته وموصل إليه فيقول: "إن علم السنن أعظم الوسائل لكمال العلم بالله – تعالى– وصفاته ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعاً وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في نظرته وهداية كتابه... وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على بصيرته في هذا العلم"[2].

٢– الآثار المترتبة على إهمال علم السنن:

إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظلم بلا دليل يقود، ولا هاد يرشد، ولا صاحب يدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة، أو الإفادة من كل منحة، من هنا نرى الأستاذ الإمام يركز على إبراز الآثار المترتبة على إهمال السنن فيقول:

١– المنار جـ ١ ، ص ٢٠ – ٢١ .
٢– المنار جـ ٧ ، ص ٤١٧ بتصرف كبير .

"إن للأمم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن الإلهية العامة، وإذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة، وعلى غفلة، ليلاً أو نهارا، ولله - عز وجل- سنة في أخذ الأمم بذنوبها، ومن لا يعتبر بذلك ولا يتربى يصر على ذنبه، ولا يرجع عنه"[1]، من هنا ندرك أهمية دراسة وتدوين علم السنن ولفت أنظار المسلمين إليها حتى تعود لهم الريادة والقيادة.

* * *

١- انظر المنار جـ ٩ ، ص ٤٨٠-٤٨١ بتصرف كبير .

المبحث الثالث
موقف المسلمين من علم السنن
بين الإعمال والإهمال

يرى الأستاذ الإمام أن علم السنن لم يأخذ حقه من تفكير المسلمين فى القديم والحديث إلا النذر اليسير الذى لا يتناسب مع قيمة هذا العلم، فإن المفسرين متقدمين ومتأخرين (لم يقصروا في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا فى بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله – تعالى- في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ دينها ودنياها، وهو مالا يغنى عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة، والسلم، والإجارة؛ فإن العلم بسنن الله تعالى لا يعدله إلا العلم بالله – تعالى- وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو طريقه الموصل إليه)[1]، ويرى أن المسلمين بصفة عامة لم يكونوا على مستوى الأمر الإلهي: (اقرأ) الذي ربط بين قراءة المنظور وقراءة المسطور، فجعل القراءة باسم الله الذى خلق، خلق الإنسان من علق، والذي علم

١- انظر المنار ج٧ ص٤١٦.

بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فلم يفد المسلمون لا مـــن قـــراءة المسطور ولا من قراءة المنظور، (وأمسوا من أجهل الناس بسنن الله– تعالى–، وأبعدهم عن معرفة أحوال الخلق)[1]، كما يرى أن غيرهـــم أصبح أكثر منهم سيرا في الأرض، وأشد منـــهم اســـتنباطا لـــسنن الاجتماع، وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولـــين، والاتعـــاظ بجهل المعاصرين[2]، ويري الأستاذ الإمام أن اعتماد المسلمين علـــى مجرد أنهم مسلمون دون وعي بمتطلبات هذا الإسلام– ومن أولياتـــه العلم بالسنن لا يكفي، فقد يكون قوم آخرون كافرين بالدين أصلا، بعيدين عن هدي السماء، لكنهم يعرفون هذه السنن، يكونون أفضل حالا، وأسعد حظا من هؤلاء المسلمين، فيقول: (ربما نـــري قومـــا يدّعون الإيمان بالله ورسله، كلهم أو بعضهم يعتمـــدون فى قـــضاء حاجتهم، من شفاء مرضي، وسعة رزق، ونصر على عـــدو، وغـــير ذلك، علي التوسل ببعض الأولياء، وذبح النذور لهـــم، ودعـــائهم، والطواف بقبورهم، والتمسح بهم، ونجد آخرين لـــيس لهـــم مثـــل اعتقادهم وعملهم هذا، وهم أحسن منهم صحة، وأوسع رزقا، وأعز ملكا، وإذا قاتلوهم ينتصرون عليهم، ويسودونهم، وسبب ذلك أنهم

١– المنار ج٤ ص١٨ .

٢– السابق ٤/١٨و١٩.

يعرفون سنن الله في الأسباب والمسببات، وأن الرغائب إنما تنال بالأعمال، مع مراعاة تلك السنن، سواء كانوا يعلمون مع ذلك أن الله- تعالى - رب الخلق، وهو الخالق والواضع لنظام خلقه بتلك السنن، وأنه لا تبديل لسنته، كما أنه لا تبديل لخلقه، أم لم يكونوا يعلمون ذلك)[1]، فالأمر إذا ليس أمر كفر وإيمان، وإنما هو أمر إدراك لهذه السنن الثابتة والقوانين الماضية التي لا تحابي ولا تجامل، بل تجري على الجميع بشمول واطراد، وعندما يتناول قوله- تعالى-: (**ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**)[2]، يذكر أن هذه الآية وما يشبهها من أهم قواعد علم الاجتماع البشري، وهو علم بسنن الله- تعالى- في قوة الأمم وضعفها، وعزها وذلها، وغناها وفقرها وبداوتها وحضارتها وأعمالها ويؤكد على أن موقف المسلمين منه كان موقفا باهتا ضعيفا، لا يرقى إلى قيمة هذا العلم، في الوقت الذي أفاد منه غيرهم فيقول: (لقد (استفاد) غير المسلمين بما كتبه ابن خلدون في هذا العلم، وبنوا عليه، ووسعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين، من هداية القرآن العليا في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم، على ما أرشد إليه من القواعد وسنن الله فيمن قبلهم،

١- المنار ٨/٢٢١.
٢- الأنعام: ٣١.

ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية، مع شدة حاجتهم إليها، بسبب ما وصل إليه تنازع البقاء في هذا العصر[1]، وعندما يتحدث عن سنة من سنن الله- تعالي- كجعل العاقبة للمتقين ينعي على علماء المسلمين، الذين لم يفقهوا الآيات الدالة على تلك السنن و لم يقفوا عندها، حتى تفيد الأمة المسلمة من توجيهات القرآن الكريم إذ يقول: "إن قوله – تعالى-: **﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[2] هو الأساس الأعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية والسياسية، والشعوب والأمم في مقاصدها، وتغلبها على خصومها ومناوئيها، كما أنه الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم الدينية والدنيوية، من مالية واجتماعية، ولئن سألت أكثر علماء الدين ممن لا بضاعة في علم القرآن، عن معنى كون العاقبة للمتقين، ليقولن أوسعهم اطلاعا: إن التقوى فعل الطاعات وترك المعاصي، ويقصر فيما يجب من البيان التفصيلي لها في تقوى الأفراد والجماعات، وتقوى الأمة و لم يشر أحد منهم إلى معناها العام، وهو اتقاء ما يفسد العقائد والأخلاق، والروابط الخاصة والعامة، وتحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة، وما أرشد إليه من سنن الله – تعالى- في حياة الأمم وموتها، وضعفها

١- المنار ٩٧/٨ بتصرف.
٢- هود: ٤٩.

وقوتها، وبقاء دولها وزوالها، وكون هذه السنن مطـــردة في جميـــع الشؤون العامة، من منـــزلية ومدنية ومالية وحربية وسياسية، لا تبد يل لها ولا تحويل، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل، وبهذا كلــه تكون العاقبة المرجوة لهم في السيادة والسعادة)[1]، وإذا كان موقف المسلمين من السنن الربانية لا يليق بقيمة السنن وخطورتها فإن ذلك راجع إلى عدد من الأسباب في نظر الأستاذ الإمام نوجزها فيما يلي:

أسباب جهل المسلمين بعلم السنن في نظر الأستاذ الإمام:

يرى الأستاذ الإمام أن هناك أسبابا جعلت إدراك المسلمين لعلـــم السنن إدراكا ضعيفا، وتوظيفهم له أشد ضعفا، وأبعد عن طريق الحق رشداً، ومن هذه الأسباب:

١ – الفهم المغلوط لمضامين الدين ومعايير الحياة:

فإن كثيرا من الناس لا يفهم أن لله في خلقه سننا ثابتة، وقـــوانين مستمرة استمرار الشمس في مدارها، منتظمة انتظامها في ممرهـــا، لا تتخلف ولا تتأجل، وهؤلاء عندما يرى بعضهم ضعف أمتـــه مـــثلا يعتذر عنه (بالقدر الذي يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر، أو يسليها بأن هذا من علامات الساعة، وارتكس بعضهم في حمأة جهله بالإسلام حـــتى ارتدوا عنه سرا أو جهرا، زاعمين أن تعاليمه هى الـــتي أضـــعفتهم،

١– انظر تفسير المنار ١٢ ص٢٠١ بتصر ف يسير.

وأضاعت عليهم ملكهم، والتمسوا هداية غير هدايته، ليقيمـــوا بهـــا دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المـــبين)[1]، إن الفهم السليم لمضامين الدين ونصوصه كان لـــسلفنا فيمـــا مـــضى كالغذاء الصالح للجسم السليم، يزيده قوة، ويحفظ له حياته، ويعوضه عن كل ما ينحل من الدقائق الميتة، مادة حية خيرًا منها، ثم صـــارت تلك النصوص والحكم في طور الضعف كالغذاء الجيـــد في الجـــسم العليل، لا يزيده إلا ضعفًا وانحلالاً، إذ صاروا يفهمون منها مثلاً: أن الكسل، والخمول، والتوكل، والفقر، والذل، من مقاصـــد الـــدين، فصاروا لا يستفيد ون منها إلا ضعفا وعجزا، ولا يزدادون مع ذلك إلا حرصًا ودناءة وبخلاً)[2]، فعدم الفهم لمفردات الإســـلام جعلـــت إدراك المسلمين لعلم السنن إدراكاً غائماً، يفسر الظواهر بغير أسبابها، ويعللها بغير عللها، ويربط النتائج بغير مقدماتها.

٢- التقليد:

والسبب الثاني من أسباب عدم انتفاع المسلمين التقليد، يتحـــدث الأستاذ الإمام عن ذلك، وأن التقليد سبب من أسباب انصرافهم عن

١- انظر المنار ج٨ ص ٩٧ بتصرف يسير.
٢- انظر المنار ج ٧ ص ٤١٤و٤١٥ وانظر محاور المشروع الفكري صـــ٤٥ ومـــا بعدها .

توظيف سنن الله لصالحهم، والإفادة منها، فالمسلمون – مثلاً كـــان الأجدر بهم أن يكونوا أحق الناس بالصبر الذي لـــه ســـنة ثابتـــة في النصر، (فالصبر عون على الجهاد، ومنجـــاة مـــن جميـــع الـــشدائد والأهوال، وكانوا أحق الناس بالشكر، فالشكر سبب للمزيـــد مـــن النعيم، ولو كانوا مهتدين بوحي السماء، وسنن الله في هذه الأشياء، وأن لله تعالى في خلقه سننا في جعلهم خلائـــف في الأرض، ورفـــع بعضهم فوق بعض درجات، لكانوا أعظم الناس ملكـــاً، وأعـــدلهم حكما، وأوسعهم علما، وأشدهم قوة، وأكثرهم ثروة، وكذلك كان به سلفهم، وقد أخبرهم الله أنه لايغير ما بقـــوم حـــتى يغـــيروا مـــا بأنفسهم، ولكن التقليد أضلهم عن تدبر القرآن، والاتكـــال علـــى الميتين حال بينهم وبين سنن الله في هذا الإنسان، (**فَمَنِ اتَّبَعَ هُـــدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَـــنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**)[1] فالتقليد الذي أصبح غشاوة على الأعين حال بينهم وبـــين هداية الله تعالى وسننه في الأنفس والآفاق.

٣– عدم تدوين علم السنن:

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم حافل بقواعد هذه الـــسنن، أو

١– طه: ١٢٣–١٢٥، وانظر المنار ج ٨ ص ٢٢٣.

علم الاجتماع كما يسمي، إلا أن المسلمين لم يلتفتوا إليه بـــصورة مناسبة لقيمته وحاجتهم الماسة له، ومن أسباب ذلك عدم التـــدوين لهذا العلم، (لقد جاء في القرآن الكريم الكثير من قواعد هذا العلـــم، فغفل أكثر المفسرين عنه، و لم يهتد إلى فقه بعضه إلا القليل منهم، إذ لم يكن هذا العلم مدونا في عهدهم فينبههم إلى ذلـــك)[1]، فعـــدم تدوين علم السنن كان سببا من أسباب انصراف المسلمين عنـــه، أو عدم التفاقم إليه على الأقل، من هنا يري الأستاذ الإمـــام وجـــوب تدوين علم السنن؛ حتى تفيد منه الأمة، وتحسن توظيفه فيقـــول: (إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هـــذه السنن علما من العلوم المدونة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة، على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قـــوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلـــوم والفنون التي أرشد إليه القرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفـــصيل؛ عملا بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه، والعلم بـــسنن الله – تعالى– من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا بالـــسير في الأرض؛ لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها، ولا يحتج علينـــا بعـــدم تـــدوين

١- تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤و٣٥.

الصحابة لها؛ فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الأصول والقواعد)[1]، فتدوين العلم باب من أبواب إظهاره وإشهاره، ودلالة الناس على الانتفاع به.

٤- البعد عن هداية القرآن والاعتماد على كتب الجدل:

ومن الأسباب التي يرى الأستاذ الإمام أنها صارف من صوارف المسلمين عن إدراك علم السنن: بعدهم عن هداية القرآن في أمورهم العامة والخاصة، (واعتمادهم على كتب الكلام الجدلية، التي ألفت في الرد على فلسفة نسخت وبدع باد أهلها، وكتب الفقه التقليدية، الخالية من جل هداية القرآن والسنة)[2]، ويؤكد -رحمه الله - في موطن آخر على أن سبب قصور المسلمين في علم السنن تركهم لهداية القرآن الكريم، واعتمادهم على الكتب الجامدة، حتى يرى أن ذلك لم يكن فقط سببا في جهلهم بعلم السنن، بل هو سبب لضياع ملكهم، فيقول: (ترى شعوب المسلمين يجهلون السنن الإلهية وما ضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها، والذي كان سببا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد

١- انظر تفسير المنار ج٤ ص١١٤و١١٥ وانظر ج٩ ص ٤٨٢ و ٤٨٣.
٢- انظر المنار ج٩ ص ١٨.

المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكـــام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بهــــا)[1]، فترك المسلمين لروح القرآن، وهجرهم لهدا يته، واعتمـــادهم علــــى كتب الكلام الجدلية، وكتب الفقه الجامدة، جعل إدراكهم لحــــديث القرآن عن السنن إدراكا ضعيفا، وتوظيفهم لها أكثر ضعفاً.

موقف الغرب من علم السنن:

وفي الوقت الذي يبتعد فيه أهل القرآن عــــن روحــــه وعطائــــه، وصفائه وروائه، نجد غير المسلمين يعيشون بـــــروح القـــرآن، وإن لم يكونوا مسلمين، فنرى موقفهم من السنن موقفا جادا فاعلا، وقويـــا مؤثرا، ينتفعون بما يراه أسلافنا، كابن خلدون وغيره، فينهضون حين نتعثر نحن في خطواتنا الأولى، يرى الأستاذ الإمام هذه الظاهرة فيذكر (أن غير المسلمين أكثر سيرا في الأرض منهم، وأشد استنباطا لـــسنن الاجتماع، وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولـــين، والاتعـــاظ بجهل المعاصرين)[2]، كما يرى أن غير المسلمين أفادوا بما كتبه ابــــن خلدون في علم السنن وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلـــوم الـــتي

١- المنار ج٩ ص٤٨٢.
٢- تفسير المنار ج٤ ص ١١٨و١١٩

سادوا بها على المسلمين الذين لم يفيدوا منه كما يجب)[١] كما يرى أن سبب بقاء ملك الغرب أنه يراعي هذه السنن حتى في استعماره للبلاد المسلمة،فهو يحرص على ألا يقع فيما وقع فيه حكام هذه البلاد من ظلم وعدوان، فيقول: (كنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمثل هذه الآية[٢] من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وإفساد العقائد والأخلاق وسلب الأموال يرون أن يكون ظلمهم أقل من حكام أهل البلاد الذين أضاعوها؛وعقوله تبحث دائما في الأسباب التي يخشى أن تكون سببا لسلبها فهم لأجل اتقائها آذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر متعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الطامعين فيها حذرا من أن يسلبوهم إياها"[٣] إلى هذا الحد تصل معرفة هؤلاء الذين لم يهتدوا بهدي السماء لعلم السنن وإلى هذا الحد تصل إفادتهم منه.

العلم بالسنن وفقدان هداية السماء:

العلم بالسنن مع فقدان هداية السماء لا يغني عن المرء شيئا ورغم إشارة الأستاذ الإمام إلى اهتمام الغرب بعلم السنن إلا أنه يؤكد على

١- تفسير المنار ج٨ ص ٩٧ .

٢ - وهي قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ من بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُون) الأعراف: ١٠٠.

٣- تفسير المنار ج٩ ص٤٨٣.

أن هذه المعرفة معرفة ناقصة لا تكتمل إلا بوصلها بهداية السماء فيقول: (إن هؤلاء وإن كانوا على علم واسع بسنن الله في أحوال البشر وسائر أمور الكون ونالوا به ملكا عظيما في الأرض فأكثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار بما تعقب الشرور والمعاصي من الفساد في الأرض... فالعلم بسنن الاجتماع والعمران لا يغني عن هداية الدين التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن يجنح إلى مالا غاية له من الشر)[1] فثبت بذلك أن علم السنن وحده لا يكفي إذا كان منقطعا عن وحي السماء وما أحرى المسلمين اليوم بالمزج بين تعاليم السماء ومعطيات السنن حتى يكونوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

* * *

١- المنار ج٩ ص ١٩.

المبحث الرابع
عناية النبي ﷺ والصحابة الكرام بعلم السنن
في نظر الأستاذ الإمام

حفلت سنة النبي ﷺ بشقيها القولي والعملي بالعناية بإبراز سنن الله تعالى في خلقه والتعامل معها بل توظيفها إلى أقصى درجات التوظيف والمتأمل لهذه السنة التي هي تطبيق عملي لقوله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[1].. الناظر لهذه السنة يجد جانب العناية بموضوع القوانين التي تحكم الناس وحياتهم والتي عبر عنها القرآن الكريم بسنة "الله" أو "سنتنا" واضحة أي وضوح بينة أي بيان.

فقد صور الرسول ﷺ المجتمع الإنساني في تمسكه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تركه بصورة ناطقة واضحة هي صورة مجتمع في سفينة يريد بعض ركابها خرق المجتمع لمصلحة ذاتية وهدف شخصي وراحة جسدية، فإن وقف الباقون مكتوفي الأيدي غاضي البصر عن قيمة الأمر والنهي هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً. وذلك ما يصوره قوله ﷺ فيما أخرجه

١- النحل من الآية :٤٤.

البخاري "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة أصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[1].

كذلك في تصويره – ﷺ- لسنة الائتلاف بربط أواصر الجسد الواحد بصورة جهاز واحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله بقوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[2]. ويعلم صلوات الله وسلامه عليه أصحابه مبادئ هذا العلم ليرسخ في أذهانهم أن لله في كونه سنناً ثابتة وقوانين راسخة وأن الحياة لا تمضي هكذا سبهللي ولا تسير عبثاً حيثما اتفق عندما يسأله بعض الناس نوالاً فيرشده إلى سنة الله في الرزق فيأمره بأن يذهب ويحتطب ...

والذي يسأله يا رسول الله أترك ناقتي وأتوكل على الله يخبره- ﷺ – بطريقة عملية مركزة أنه لا تعارض بين السنن الربانية والأخذ

١- صحيح البخاري ك الشركة ب يقرع في القسمة والاستهام فيه، والترمذي في ك الفتن.

٢- انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٥٠٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، ١٩٩٩/٤.

بالأسباب بل إن الأخذ بالأسباب من سنن الله تعالى في عباده فيقول "بل اعقلها وتوكل"[١].

وقد رصد الأستاذ الإمام محمد عبده -رحمه الله- هذا الجانب من جوانب عناية النبي (ﷺ) بفقه السنن وتوظيفه لها فيقول مثلاً عن الحديث عن تطبيق الرسول (ﷺ) لسنة الله في النصر، "إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسباباً حسية ومعنوية وأن لله تعالى فيها سنناً مطردة.. وكان يعلم مع ذلك أن لله تعالى عناية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينتصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض سنته وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله.

فتعامل النبي ﷺ مع سنن النصر والقتال دليل على علمه ﷺ بهذه القواعد والقوانين المطردة التي تحكم السلوك البشري ولا يتوقف علمه - ﷺ - بها عند إدراكها بل يعلم كيفية توظيفها ويعلم خصائصها وطبيعتها ويؤكد الإمام محمد عبده على ذلك بأنه ﷺ (كان يعلم أن شئون الاجتماع البشري كسائر أطوار العالم، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك في السور المكية بوجه عام ثم ذكر في شأن القتال بوجه خاص الكلام على غزوة أحد

١- سنن الترمذي، ٤/٦٦٨.

من سورة آل عمران المدنية (**قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)[1]، ثم في سورة الأحزاب المدنية التي نزلت في غزوتها التي تسمى غزوة الخندق أيضا وكان يعلم أن سننه تعالي في القتال كسائر سننه في أنها لا تبديل لها ولا تحويل من قبل نزول ما أشرنا إليه في هاتين السور تين المدنيتين التين نزلتا بعد غزوة بدر فلذلك كان خوفه علي المؤمنين عظيما من هنا نؤكد علم النبي بسنن الله في خلقه وقوانينه في عباده وعلي تطبيق النبي ﷺ لهذه القوانين في حياته.

علم الصحابة ﷺ الكرام بالسنن وعنايتهم بها:

ولا يتوقف الأمر عند النبي ﷺ وحده بعلم السنن وتوظيفه إياها بل إن الجيل الرائد القائد الذي نشر الدين وفتح البلاد وهدى العباد إلى الله تعالى كان على وعي لافت للنظر ويقظة مثيرة للانتباه بهذه السنن الثابتة كما يرى الأستاذ الإمام الذي يقول: "وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله-

١- آل عمران: ١٣٧.

تعالى- ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها وما كانوا عليه من العلم والتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض وكذلك كانت علومهم كلها ولما اختلفت حالة العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية سم بما شئت فلا حرج في التسمية)[1].

القرآن الكريم يعلم الصحابة (ﷺ) سنن الله في الإنسان:

يرى الأستاذ الإمام- رحمه الله- أن القرآن الكريم يعلم الصحابة السنن والقوانين الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل في قوله تعالى: **(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**[2]. أي إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع بحيث صار هذا الإيمان وصفاً ثابتاً لكم حاكماً في ضمائركم وأعمالكم فأنتم الأعلون وإن أصابكم ما أصابكم وإن كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن ما أصابكم يعدكم للتقوى فتستحقون تلك العاقبة وهي علو السيادة عليهم

١- المنار ٤/١١٥ .
٢- آل عمران: ١٣٩.

وتلك الأيام نداولها بين الناس أي نصرفها فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء والمعنى أن مداولة الأيام سنة من سنن الله في الاجتماع البشري فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق وإنما المضمون لصاحب الحق أن تكون العاقبة له إنما الأعمال بالخواتيم وهذه قاعدة كقاعدة (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) أي هذه سنة من تلك السنن وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً وإنما تكون لمن عرف أسبابها وراعاها حق رعايتها أي إذا علمتهم أن ذلك سنة فعليكم ألا تهنوا وتضعفوا بما أصابكم لأنكم تعلمون أن الدولة تدول"[1].

وقد ذكر الأستاذ رشيد رضا – رحمه الله – أن الأستاذ الإمام قال في درسه رأيت النبي ﷺ في الرؤيا منصرفاً مع أصحابه من "أحد" وهو يقول: "لو خيرت بين النصر والهزيمة لاخترت الهزيمة" أي لما في الهزيمة من التأديب الإلهي للمؤمنين وتعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط ولا يغتروا بشيء يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر وأخذ الأهبة وغير ذلك من السنن[2].

١- المنار ٤/ ١٢٠- ١٢٢ بتصرف واختيار.
٢- المنار جـ ٤ ص ١٢٠.

فالقرآن في نظر الأستاذ الإمام يلفت نظر الصحابة الكـــرام إلى أن الأيام دول مرة للمحق على المبطل ومرة للمبطل على المحق ولكـــن العاقبة في النهاية للمتقين فلابد أن تعلموا ذلك وتدركوا هذه المداولة بين الحق والباطل فلا يصيبكم الوهن والحزن لأنها سنة الله الماضـــية ومشيئته النافذة.

استغفار الصحابة عند شعورهم بالتقصير في التعامل مع السنن:

هذا ويرى الأستاذ الإمام أن القرآن الكريم إذا كان قد دعـــا إلى الأخذ بالسنن الجارية والتعامل معها وإحسان توظيفهـــا فـــإنهم ﷺ كانوا يستغفرون الله تعالى إذا شعروا أنهم قصروا في التعامل مع هذه السنن (**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَـــا**) أي مـــا كان لهم من قول في تلك الحال التي اعتصموا فيها بالصبر والثبـــات وعزة النفس وشدة البأس إلا ذلك القول المنبئ عن قوة إيمانهم وصدق إرادتهم وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به مـــن الذنوب والتقصير في إقامة السنن أو الوقوف عند ما حددته الشرائع (وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) للغلو فيه وتجاوز الحدود التي حددتها السنن له... فإن النصر بيدك تؤتيه من تشاء بمقتضى سنتك ومنـــها أن الـــذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ولذلك سألوا الله أن يمحو من

نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف وأن يوفقهم إلى دوام الثبات)[1].

وعندما يتناول الأستاذ الإمام تفسير قوله تعالى: (**فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)[2] يرد على اعتراض قد يرد في ذهن بعض السامعين على هذه من أن ثواب الدنيا لا يصل إلى الذين قضوا نحبهم قبل رؤية النصر فأين ثواب الدنيا وزهرتها لهم إذاً فيقول: "ولا يعترض على ما أثبتته الآية بمثل وقعتي الرجيع وبئر معونة بحيث أن من قتلوا هنالك لم يؤتوا ثواب الدنيا، فإن إيثار ثواب الدنيا مشروط باتباع السنن والأخذ بالأسباب وفي وقعة الرجيع قد اختلفوا في النزول على حكم المشركين فكان ذلك تقصيراً منهم وفي وقعة بئر معونة قد قصروا في الاحتياط إذ أمنوا لمن لا يصح أن يؤمن له فكان ذلك جزاء التقصير وموعظة للمسلمين ليكونوا دائماً حذرين محتاطين غير مقصرين ولا مسرفين وقد صرح بما اتفق عليه المفسرون من كون الآيات تأديباً للمؤمنين وتوبيخاً لمن فرط منهم ما فرط والأمر ظاهر كالشمس في الضحى أو أشد ظهوراً"[3] فهو يرى أن تقصير المسلمين في التعامل مع السنن

١- انظر المنار جـ ٤ ، ص ١٤٢ بتصرف واختيار .
٢- آل عمران ١٤٨
٣- المنار جـ ٤ ، ص ١٤٣،١٤٤ .

يفوت عليهم ثواب الدنيا بما تحمله هذه الكلمة من معانٍ ولا يغـــني عنهم علمهم النظري الذي لم يوظف هذه السنن ويفيد منها خـــير إفادة.

أسباب فهم الصحابة ﭫ لعلم السنن في نظر الأستاذ الإمام:

الصحابة الكرام هم الجيل الأول الذي عاين التنـــــزيل وشـــاهد أحوال وقرائن نـــزول القرآن الكريم ففهموا من القرآن ما لم يفهمه غيرهم وأعانهم على التجاوب مع أفكاره ومضامينه غير واحد مـــن الأمر منها:

أ- وراثتهم اللغة العربية واتباعهم لسنة النبي ﷺ:

يرى الأستاذ الإمام -رحمه الله- أن وراثة الصحابة للغة القـــرآن واتباعهم للسنة النبوية كان عاملاً من عوامل إدراكهم لسنن الله تعالى الذي يتحدث عنها القرآن الكريم وفقدان كثير مـــن غيرهـــم لهـــذه المؤهلات، وإن كانوا من أهل العلم والشغل بالقرآن الكريم وعلومـــه أضاعت من أيديهم هذه المفاهيم القرآنية والسنن الربانية التي عنى بها القرآن الكريم أي عناية فيقول: (إن علماء الـــصحابة ﭫ والتـــابعين وأئمة الأمصار الذين ورثوا لغة القرآن بالسليقة ولغة النبي ﷺ وبيانـــه بالا تباع كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها وإن لم يصنعوا لها قواعد علمية وقتية لتفقيه من بعدهم فيهـــا ثم زالـــت

سليقة اللغة من علماء المولدين فصاروا يفسرون القرآن بقواعد الفنون التي وضعوها للغة وللدين بقدر معارفهم الممزوجة بما ورثوا وما كسبوا من الشعوب التي اهتدت بالإسلام و لم يكن علم الاجتماع مما دونه أحد فلهذا لا نرى في تفاسيرهم شيئاً من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم بل تنكبوا هداية القرآن فيها فكانت عاقبة أمرهم ما تشكو منه وتحاول تلافيه)[1] ويتضح من كلام الإمام -رحمه الله- عدد من المفاهيم منها:

أن من الأسباب التي أعانت الصحابة على فهم السنن وإدراكها تطبعهم باللغة العربية لغة القرآن والتنزيل.

١- اتباعهم سنة النبي ﷺ اتباعاً عملياً وتأثرهم ببيانه.

٢- أن التابعين وعلماء الأمصار نالهم شيء من هذا الإدراك لأنهم ساروا على منهاج الصحابة الأكرمين.

٣- أنه من بعد هؤلاء وهؤلاء لما زالت سليقتهم وأخذوا يحشدون في تفسيرهم للقرآن القواعد والفنون التي وضعوها للغة، ضاعت منهم مضامين كثيرة ومفاهيم عديدة من مفاهيم القرآن الكريم.

١- المنار ج١٢ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

ب- علمهم ﭫ بأحوال الناس وطبائعهم واستعداداتهم وأخلاقهم:

من أسباب إدراك الصحابة لعلم السنن كما يرى الإمام محمد عبده علمهم بحال من يتعاملون معهم ومعرفتهم باستعداداتهم وأخلاقهم وقد دلل على ذلك بقوله: (روي أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه "أنسب العرب" وليس معنى كونه أعلم بالأنساب أنه كان عنده كتاب "بحر الأنساب" يراجع فيه وإنما معناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر وما كان من إقدامه مع لينه وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الإفرنج على حرب أهل الردة إلا بهذا العلم الذي كان به على بصيرة فلم يهب و لم يخف وقد خاف عمر وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أي خاف أن تضعف شوكة الإسلام حتى قال أبو بكر: "والله لو منعوني عقالاً مما كان يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه" فهذه هي قوة العلم لا قوة الجهل)[1].

فالأستاذ الإمام –رحمه الله- يرى أن علم الصحابة الكرام بأحوال الناس وأنسابهم جزء من علمهم بسنن الله تعالى في الإنسان ولعل هذا

١- المنار جـ ٤، ص ٣٢.

ما ظهر في تصرف الصديق أبي بكر ﷺ في حروب الردة كما ذكـــر الأستاذ الإمام وكما ظهر كذلك في تخير الصديق ﷺ من يـــدعوهم إلى الإسلام حتى كان أكثر المبشرين بالجنة قد دخلوا الإسلام على يد أبي بكر ﷺ.

جـــ- علمهم ﷺ بالبلاد وأحوالها:

ومن الأسباب التي يذكرها الأستاذ الإمام ويرى أنها كانت معيناً للصحابة ﷺ على إدراك السنن وتوظيفها والاستفادة منها، ويـــدعو القائمين على أمر الإسلام بالأخذ بها: العلم بأحوال البلدان أو بتعبير آخر بتقويم البلدان (فقد كان الصحابة ﷺ أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان وبالجغرافيا ولذلك أقدموا على الفتوح ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل فلو كـــانوا يجهلـــون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح للقتال فيها لهلكـــوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم ومن قرأ ما حفظ مـــن خطبـــهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك بأجلى بيان)[1].

ويرى الأستاذ الإمام –رحمه الله– أن هناك علاقة وثقي وآصـــرة شديدة بين علم التاريخ وتقويم البلدان ومعرفة أحوالها وعلم الـــسنن

١- المنار جـــ ٤، ص ٣٣ .

وإلا لما صنع الشافعي مذهباً جديداً بعد مجيئه مصر غير الذي وضـعه عند أهل العراق، ولما خالف أبو يوسف أستاذه أبا حنيفة مما يرجـع الكثيرمنه إلى ما اختبره من أحوال الناس[1].

د- علم الصحابة ﷺ بعلم النفس وأطوارها وأحوالها:

كذلك من الأسباب التي يذكرها الأستاذ الإمـام -رحمـه الله- ويؤكد على أنها كانت سبباً من أسباب إحسان تعامل الـصحابة ﷺ مع السنن بعلمهم بأحوال النفس البشرية (فقد كانوا على حظ عظيم من هذا العلم وذلك بسلامة نظرتهم وذكاء قريحتهم وبما هداهم إليـه القرآن الكريم بآياته والرسول ﷺ ببيانه وسـيرته وإن لم يتدارسـوه بطريقة صناعية فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له من الحكماء أو أرسخ كما يدل عليه ما يؤثر عنهم من الحكم وما نحـوا بـه في الدعوة وظهروا في مواطن الحجة، وينقل الأستاذ رشيد رضا -رحمه الله- عبارة الأستاذ الإمام بنصها في هذه المسألة وهي "ولا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شيء من هذا العلم إذ لم يكن يتدارسونه في الكتب ويتلقونه عن المعلمين فإنكم إذا قرأتم التاريخ وعرفتم كيـف كانوا يتجا لدون في الحرب ويتجادلون في مواقع الخطـب بمجـرد

١- انظر المنار جـ٤ ، ص ٣٣ ، ٣٤ بتصرف كبير .

الفطرة التي بعدنا عنها أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه")[1] ويؤكـد الأستاذ الإمام –رحمه الله– على هذا المعنى وهو علم الـصحابة ﷺ بأطوار النفس ووظيفتها بقول عمر ﷺ للمرأة التي صرحت لزوجها بأنها لا تحبه "إذا كانت إحداكن لا تحب الرجل منا فلا تخبره بـذلك فإن أقل البيوت ما يبنى على المحبة وإنما الناس يتعاشـرون بالحـسب والإسلام" ويرى أن هذه الكلمة الجليلة لا تخرج بالبداهة هكـذا إلا من فم حكيم قد انطوى في نفسه على علم الأخلاق وعلم الاجتماع أيضاً ووقف مع ذلك على أحوال الناس واختبرهم أتم اختبار[2] "ومن هنا يمكننا أن نقول إن النبي ﷺ كان على علم بالسنن الربانية بل كان يوظفها ويحسن التعامل معها ومواقفه ﷺ في الحرب والسلم والتربيـة والقيادة واستيعاب شتى أنواع النفوس مهمـا اختلفـت أنمـاطهم وطبائعهم وتباعدت منازلهم ومشاربهم دليل على ذلك ولا يغيب عن بالنا كيف كان الرسول ﷺ يحسن التعامل مع الناس حتى مع أعدائـه وذلك نابع من خبرته ﷺ بسنن الله تعالى، في تغيير الأنفس وهدايـة الناس كما يمكننا أن نقول من خلال هذه الرؤية التي طرحها الأستاذ الإمام أن الصحابة ﷺ كانوا على علم بالسنن وتـصرفاتها وأنهـا لا

١- انظر المنار جـ ٤، ص ٣٣، ٣٤، بتصرف كبير .
٢- راجع المنار جـ ٤، ص ٣٤، بتصرف كبير .

تتبدل ولا تتغير وأنهم كانت لديهم أسباب تعينهم على فهم هذه السنن منها دعوة القرآن الكريم نفسه لذلك وحثهم عليه، واتباعهم لسنة النبي ﷺ وتأثرهم ببيانه وعلمهم بأحوال الناس وطبائع النفوس وإدراكهم لتقويم البلاد سهلها وحزنها وأخضرها ويابسها وعلمهم بالأخلاق وأطواء النفس إلى غير ذلك مما يفتقده المسلمون عامة ودعاتهم على وجه أخص.

* * *

المبحث الخامس
خصائص السنة الربانية
في نظر الأستاذ الإمام

المتأمل في لفظة السنة من الناحية الدلالية والمتابع لدوران الكلمة في القرآن الكريم يجد أنها تتسم بعدد من السمات والخصائص، ومن أبرز هذه الخصائص ما يلي:

١- خصيصة الاطراد وعدم التوقف: فالسنة الربانية مطردة لا تتوقف لغاية ماضية لا تنتهي عند حد، وقد عالج الأستاذ الإمام هذه الخصيصة غير مرة في تفسيره وتناوله للآيات الكريمة، فيقول -رحمه الله- وهو يصور نظرة الصحابة رضوان الله عليهم وثقتهم بنصر الله تعالى لهم على كل حال وكيف علمهم الله- عز وجل- أن هذا النصر يمضي بسنة مطردة لا تتخلف ولا تتبدل، "كان المؤمنون السابقون إلى الإسلام على ثقة من وعد الله تعالى بنصر نبيه وإظهار دينه لم يزلزل إيمانهم بذلك ضعفهم ولا قلتهم ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم وكانت وقعة بدر أول تباشير هذا النصر فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول واستعانته بربه زادهم ذلك إيمانا بأنهم هم المنصورون ولكن وقع في نفوس الكثيرين إن لم نقل في نفوس الجميع

أن نصرهم سيكون بالآيات والعناية الخاصة من غير التزام بالسنن الإلهية في الاجتماع البشري وأن وجود الرسول فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التي من أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلك ولكن الإسلام دين الفطرة لا الخوارق- كانت عاقبة ذلك أن قصروا في الأسباب يوم "أحد" حتى ظهر عليهم العدو وجرح الرسول نفسه- وإن لم يقصر هو- ولم ينهزم كما هي السنة الاجتماعية التي بينها الله تعالى في قوله: (**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**)[1]. لقد كان ذلك فرصة لإعلام لمؤمنين بحقيقة من حقائق دين الفطرة وهي أن الرسول بشر وأن الأمر بيد الله يدبره بمقتضى سننه[2]، لقد حرص القرآن الكريم في غير مرة على لفت أنظار الناس إلى أن كل شيء عند الله بمقدار كما تجري الشمس لمستقر لها بتقدير العزيز العليم وكما قدر القمر منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون كلٌ يجري لأمد محدود وأجل مؤقت لا يتعداه ولا يتحداه ولا يتعداه فكذلك الجزاء المرتب على

١- الأنفال الآية ٢٥.

٢- انظر تفسير المنار ج٤ ص ٢٩٧. ٩٨ بتصرف واختيار.

سلوك البشر يمضي حسب تقدير العزيز العليم. وعندما يتناول الأستاذ الإمام –رحمه الله– الحديث عن عقاب المكذبين وأنه يجري على أشباههم ما يجري عليهم يؤكد على هذه الخصيصة من خصائص السنن الربانية فيقول: "إن ما يحفظ التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعاداتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض ومن عقاب الله إياهم هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم ولا يظلم الله تعالى أحداً بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم هذا هو المطرد في كل الأمم في جميع الأزمنة[1] ولو فهم المسلمون هذا المعنى وأدركوا هذا الاطراد الكامن في سنن الله تعالى لما غرتهم الأماني بأنهم مسلمون وخدعتهم المفاهيم المغلوطة حتى صاروا في نهاية القافلة وذيل الأمم، لقد حفلت آيات القرآن الكريم بهذا المعنى وهو اطراد السنن فلفتت أنظار الناس إلى مصارع الغابرين ودعت للنظر والاعتبار ووصفت أهل الاعتبار بأنهم أهل الأبصار فقال تعالى: (**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**)[2].

٢– سنن الله حاكمة على الجميع: إن سنن الله تعالى حاكمة مهيمنة تمضى على الجميع وينطبق على عموم البشر لا تخص طائفة

١– انظر تفسير المنار ج ١ ص٤١ وانظر تفسير جزء عم ص ١٧ ،٦٠ ،٦١.
٢– الحشر من الآية ٢.

دون طائفة ولا أهل دين بأعيانهم دون غيرهم وهذا ما صوره القرآن الكريم بقوله: **(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)**[١].

"وإن سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه كما هي حاكمة على سائر خلقه فما من قائد عسكر يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون في أحد مثلاً ويعمل معه ماعملوا إلا وينال منه، أي: خالفه جنده ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم وما يعبر عنه بخط الرجعة من مواقعهم والعدو مشرف عليهم إلا ويكونون عرضة للانكسار إذا هو كر عليهم من ورائهم فما ذكر من أن لله تعالى سنناً في الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه إلا أن يترك النظر أو يكابر ويعاند)[٢] وهذه الحاكمية التي تمضي بها السنن على الخلق لا تحابي أحداً ولا تجامل فرداً بل تمضي مضي المادة الصماء والتي نراها في حياتنا رأي العين فالماء يغلي عند درجة معينة ويتجمد عند درجة ثابتة دون استثناء ولفت الأستاذ الإمام إلى جزئية هامة وهي أن الإنسان مهيأ لإدراك هذه السنن وذلك في قوله كل

١- الأحقاف الآية ٩.

٢- انظر تفسير المنار ج٤ ص ١١٨ .

فرد مستعد لفهم السنن مضطر إلى قبول الحجة المبنية على هذه السنن والمؤلفة منها إلا أن يكابر ويعاند ويترك النظر.

٣- عدم التبدل أو التحول: ومن خصائص السنن كذلك أنها لا تتبدل ولا تتحول وقد دلت آيات القرآن الكريم على هذه الخصيصة صراحة (**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**)[1]، وقوله تعالى: (**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**)[2]، وقوله: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**)[3].

والإمام محمد عبده — رحمه الله- عندما يتحدث عن السنة وتطبيقها على المسلمين يبرز هذه الخصائص ويظهر تلك السمات التي اشتمل عليها القرآن الكريم في حديثه عن السنن ويذكر أنها لا تتبدل ولا تتحول ومعنى أنها لا تتبدل أي لا تتغير ولا تترك مسارها ومعنى أنها لا تتحول أي أنها لا تصرف عن هدفها ولا تزال عن غايتها وإلا لما عدت سنة من السنن نجد هذا واضحاً جلياً في فكر الإمام محمد عبده عندما يتناول الحديث عن السنن وعندما يسقط

١- الفتح الآية ٢٣.
٢- الإسراء الآية ٧٧.
٣- فاطر: ٤٣.

هذه السنن على واقع المسلمين، فتراه مثلاً عندما يتحدث عن قوله تعالى: (**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)[1] يرى أولاً أن لفظة كلمة وإن كانت تدل في اللغة على الجملة والطائفة من الكلام في معنى واحد أو غرض واحد طال أو قصر فتسمى جملة "لا إله إلا الله" كلمة التوحيد وتسمى القصيدة من الشعر كلمة ويرفض رأي بعض المفسرين[2]، الذين ذهبوا إلى أن المراد من الكلمة القرآن ويرى ذلك وإن كان جائزاً لغة إلا أنه ليس ظاهراً بمعنى في هذه الآية وأن الأصوب أن الكلمات هنا بمعنى السنن ومعنى تمت أي مضت سنتي بنصر المرسلين وخذلان الطغاة المفسدين لا مبدل لكلماته، كما أنه لا تبديل لسنته (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**)[3]. ويقول -رحمه الله-: "والتبديل التغيير بالبدل وهذه الجملة تعليل لما قبلها والمعنى أن كلمة الله تعالى في نصرك أيها الرسول وخذلان أعدائك قد تمت وأصبح نفوذها حتماً لا مرد له لأن كلمات الله التي هي من أفرادها لا مبدل لها إذ لا يستطيع أحد من خلقه أن يزيل كلمة من كلماته بكلمة

١- الأنعام: ١١٥.

٢- انظر جامع البيان ج١عند تناوله لهذه الآية، والجامع لأحكام القرآن فيما ينقله عن قتادة في تفسير هذه الآية.

٣- الأحزاب الآية ٦٢.

أخرى تخالفها ويمنع صدقها على من وردت فيهم[1]. وعندما يتناول قوله تعالى: (**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**)[2] يؤكد على هذه الصفة من صفات السنن فيقول: ولو شاء الله تعالى ألا يفعل الشركاء ذلك التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه وذلك بأن يغير خلقهم وسننه الحكمية فيهم ولكنه أخبرنا بأنه لا تبديل لخلقه ولا لسننه.. فله تعالى سنن في الاهتداء لا تتغير ولا تتبدل فلا يحزنك أمرهم فإن من سنته أن يغلب حقك باطلهم هذا معنى الآية الموافق لكتاب الله ومقتضى صفاته وسننه في خلقه التي أخبر بأنها لا تبديل لها ولا تحويل[3]. ويتناول الحديث عن السنن في موضع آخر يبرز فيه صفاتها وأهميتها فيقول عن هذه الصفة: "يصرح الكتاب الكريم أن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل... والذي ينادي به الكتاب أن نظام البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه فإن غفل عن ذلك النظام غافل فلا ينتظر إلا الشقاء وإن ارتفع إلى

١- المنار ج ٨ ص ١١ ، ١٢.
٢- الأنعام الآية ١٣٧.
٣- المنار ج٨ ص ١١٠، ١١.

الصالحين نسبه واتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن فهو يجري مع طبيعة الدين وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تفر منه"[1] فسنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير إلا لما صح الأمر بالسير في الأرض لمعرفتها والاستفادة منها والاعتماد عليها في نقل حكم النظير إلى النظير.

٤- عدم المحاباة أو المجاملة: إن سنن الله تعالى لا تحابي ولا تجامل ولو جاملت لجاملت الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره، ولكنها تمضي عليهم كما تمضي على غيرهم، بل تمضي على أسوقم وقدوقم محمد ﷺ كما مضت على جميعهم وكما سرت على كل البشر ولعل هذا ما جعل القرآن الكريم يسجل الأمر الإلهي للرسول ﷺ الذي يذيل الشبهة المتعلقة بهذا التصور للسنن من عقول المسلمين حين قال: (**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**)[2]. يؤكد الأستاذ الإمام هذا المعنى "إن الله تعالى العظيم الحكيم لا يحابي في سننه المطردة في نظام خلقه مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً لأجل اسمه ولقبه أو لانتسابه بالاسم إلى

١- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٥٤، ٥٥.
٢- الأحقاف الآية ٩.

أصفيائه من خلقه بل كانت سننه حاكمة على أولئـــك الأصـــفياء أنفسهم حتى إن خاتم النبيين ﷺ قد شج رأسه وكسرت سنه وردى في الحفرة يوم أحد لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب وينعي على المسلمين السائرين في غيهم السادرين في غفلا تهم هذا الغيـــاب عن ضوابط الكون وقوانين الحياة حتى صاروا ذنباً بعد أن كانوا قادة ورادة فيقول: "فإلى متى أيها المسلمون هذا الغرور بالانتماء إلى هـــذا الدين وأنتم لا تقيمون كتابه ولا تهتدون ولا تعتبرون بما فيه من النذر ألا ترون كيف عادت الكرة إلى تلك الأمم عليكم بعد مـــا تركـــوا الغرور واعتصموا بالعلم والعمل بما جرى عليه نظام الاجتماع مـــن الأسباب والسنن حتى ملكت دول الأجانب أكثر بلادكم.. فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسنته في الأمم واتركوا وساوس الدجالين الذين يدسون فيكم نـــزعات الشرك فيصرفونكم عـــن قـــواكم العقليـــة والاجتماعية[1]. بهذه اللهجة الجازمة الصارمة ينفث الأستاذ الإمـــام من روحه في هذا الجسد الإسلامي الخامل عله يفيق مـــن ســـكرته ويصحو من غفوته بل غفلته ليساير ركب الحضارة الذي لا يتوقف وإن توقف عنه المسلمون.إن هذه الخصائص التي ذكرهـــا الأســـتاذ الإمام في تناوله لآيات القرآن الكريم تدل على عمـــق هـــذا الفهـــم

١- تفسير المنار ج٥ ص ١٢٥ وانظر في هذا المعنى ج٤ ص ٢٠٨.

السنني لديه –رحمه الله– كما تدل على ارتسام هذه المنظومة الكاملة من معارف السنن وخصائصها حتى لا تكاد تمر آية من آيات القرآن الكريم إلا ويربطها بعلم السنن ويسقطها على واقع المسلمين وكأنه يحقق مع تلميذه الرائد – السيد رشيد رضا– هذا الوصف الذي يشبه الشرط – الذي وصف به تفسيره وهو أنه كتاب يعني ببيان حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وفاعلية المسلمين في هذا العصر.

وخلاصة القول: أن السنن الربانية تتسم كما يرى الأستاذ الإمام بعدد من الخصائص هي:

١- الاطراد وعدم التوقف. ٢- الحاكمية على الجميع.

٣- عدم التبدل أو التحول. ٤- عدم المحاباة أو المجاملة.

* * *

المبحث السادس
العلاقة بين المشيئة الإلهية والسنن الربانية

الناظر بتأمل فى سنن الله تعالى الجارية وانضباطها واطرادها والناظر أيضا فى مشيئة الله تعالى المطلقة والتى لا تقف عند حد يدرك أنه لا تعارض بين السنن والمشيئة فإن السنن الجارية تمضى حسب مشيئة الله تعالى والأسباب التى نراها ليست ذات حركة بذاتها أو نتيجة بنفسها فقد تتدخل المشيئة فتقول للنار المحرقة: (**كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً**)[1] فتصبح وفق إرادة المشيئة الإلهية وتقول للمياه الجارية لا تغرقى فلا تغرق وتكون فرقا كالطود العظيم وتقول للسكين القاطعة لا تقطعى فتتوقف وتفدى الرهينة بذبح عظيم. "والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحدث إلا بأمر الخلق المباشر من إرادة الله تعالى فلا ينساق فى العقل أن الحادثة تحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الإرادة الإلهية لأن الناموس لا يملك وحده قدرة الانطباق والتوافق التى يسبب بها ألف حادث على نسق واحد ولا بد له من القدرة التى يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل فلا فرق هنا بين الحادث الذى يقع مرة واحدة

١- سورة الأنبياء من الآية ٦٩.

والحادث الذى يقع ملايين المرات فكلها تتوقف فى بادئ الأمر على إرادة الخلق والإنشاء"[1]، إذن فالكون كله بمظاهره وظواهره مربوب لإرادة الله تعالى، ومسخر لمشيئته، والسنن- وهى من قـــوانين الله لا يمكن أن تخرج عن مشيئته أو تند عن إرادته، وقد عالج الأستاذ الإمام هذا الجانب من جوانب السنن الربانية خاصة أن كثيراً من الناس يظن أن هناك تنافراً وتعارضاً بين السنن الربانية بما لهـــا مــــن خـــصائص الاطراد والشمول والحا كمية وعدم التبدل والتحول وبـــين إرادة الله تعالى ومشيئته فأكد رحمه الله على تصحيح هذا الفهم بأنه لا تناقض بين السنن والمشيئة، فالسنن مربوبة بمشيئة الله تعالى والمشيئة تجـــرى على سنن الله فى خلقه (فلا شك أن الله يفعل ما يشاء وأن كل شيء يقع بمشيئته ويجرى في العالم بمقتضى سننه وتقديره)[2] ويؤكد رحمـــه الله على هذا التعانق بين المشيئة والسنن ويصحح أفهام كثيرين مـــن المسلمين وغير المسلمين فى هذه القضية فى موضوع قـــوى الفكـــرة واضح المعنى سماه تصحيح القرآن لعقائد الأمم فى المـــشيئة والـــسنن يذكر فيه "أن المسلمين من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال فى خلقه

١- انظر الفلسفة الإسلامية ص١٧، للعقاد، ط: دار الهلال بدون تاريخ، بتـــصرف يسير.

٢- المنار ج٩ ص ٣٤٣ ، ج٤ ص٩٩.

تشبه أفعال الحاكم المستبد فى حكومته المطلق فى سيادته — حاشـاه تعالى– فهو يحابى بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم ويثيبهم على العمل الذى لا يقبله من سواهم لمجرد دخولهم فى عنوان معين وانتمائهم إلى نبي مرسل، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان، و لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان، هذا ما كانوا يظنون فى دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة من غير تفكير فى حكمته البالغة وتطبيقها على سننه العادلة... فجاء القرآن الكـريم يبين للناس أن مشيئة الله تعالى فى خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمـة وطرائق قوية قويمة فمن سار على سنن الله في الحرب — مثلا — ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحداً وثنياً ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً نبياً وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين فى موقعة أحد حـتى وصـل المشركون إلى النبي فشجوا رأسه وكسروا سنه[1] (إن مشيئة الله تعالى موافقة لحكمته وجارية على مقتضى سنته)[2] وقد ذكـر الأسـتاذ الإمام — يرحمه الله — أن هناك عدداً من الحقائق التي حواها القـرآن الكريم منها:

١– أن الله تعالى هو خالق كل شيء الذى بيده ملكـوت كـل

١– انظر المنار ج٤ ص١١٦ بتصرف يسير.
٢– انظر السابق ج٥ ص ١٢٢.

شيء وبمشيئته يجرى كل شيء فلا قاهر له على شىء وهو القـــاهر فوق كل شيء.

٢- أن خلقه وتدبيره إنما يجرى بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة[١].

وينعى الأستاذ الإمام على المسلمين الغافلين عـــن هـــذا الإ دارك اللاهين عن ذاك الترابط الذى يتعاضد ولا يتعـــارض ويتـــآلف ولا يتخالف بل كل فى فلك يسبحون فيقول: (أيظن المسلم الغافـــل أن مشيئة الله تعالى مخالفة لسننه التى بينتها آيات إيتاء الله الملك لمن يشاء ونـــزعه ممن يشاء... أيظن المسلمون أن تنازع الأمم والدول علـــى ممالكهم وسلبها من أيديهم مخالف لعدل الله العام وسننه الحكيمة التى جاء بها القرآن الكريم كلا إنه تعالى ما فرط فى الكتاب من شـــيء، ولكن هم الذين فرطوا وذاقوا جزاء تفريطهم فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم وإلا فقد مضت سنن الأولين)[٢].

وخلاصة القول:

أن الأستاذ الإمام — رحمه الله — يؤكد على تلك الحقيقـــة الـــتى أخفق فى فهمها كثير من الناس سواء من الأمم الماضـــية وأصـــحاب

١- المنار ج٤ ص ١٥٥.
٢- المنار ج ٢ ص ٣٩٣.

الملل الأخرى أم من المسلمين، وهى أن العلاقة بين المشيئة والسنن علاقة حميمة لا تنافر فيها ولا اختلاف ومن أين يأتي الخلاف والكل يخرج من مصدر واحد ويصدر عن مشكاة واحدة.

* * *

المبحث السابع
السنن الربانية وحرية الإرادة

حرية الإرادة البشرية من الأمور الشائكة والقضايا التي عالجها الفكر الإسلامي في أطروحاته قديما وحديثا وكانت تلك المعالجات بين مقتصد وظالم لنفسه جعل الإنسان كالريشة المعلقة في الهواء تميل مع الريح حيث تميل لا اختيار ولا إرادة ومنها ما ذهب إلي أن إرادة الإنسان مستقلة استقلالا تاما دون قيود أو حدود ولا تقف أمامها عقبات أو سدود. والناظر لأول وهلة في العلاقة بين السنن والإرادة يسترعي نظره سؤال هام هل السنن بما لها من صفات وخصائص تكاد تكون جامدة صماء لا تتبدل ولا تتغير تؤثر في حرية الإرادة بالنسبة للإنسان وهل للإنسان دور في جريان هذه السنن وهل له من الحرية من شيء؟ عالج الأستاذ الإمام هذه العلاقة في تفسيره فنراه عند تفسير قوله تعالى: (**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**)[1].

يقول: "يتوهم أهل الجبر أنها تدل علي نحلتهم ويرده أنه تعالي أمرهم بقتال المشركين ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغوا وعبثا

١- التوبة: ١٤ .

وقوله تعالى: (**يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ**) معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلا ومن صدورهم ونحورهم طعنا ويؤكد الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله: (**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا**)[1]، وقوله: (**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)[2]، وقوله: (**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**)[3] وليس في معنى هذه الآيات أن الله تعالى منعهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها مجبرين على الفسق والظلم والكفر، إجبارا وإنما معناه: أن هذه الصفات التي رسخت في أنفسهم بكسبهم منافية لهدي الله الذي بعث به رسله بحسب سننه تعالى في الأسباب والمسببات"[4].

فإرادة الإنسان حرة في الاختيار لا جبر ولا قهر ولا إرغام للإنسان على ما لا يريده، لكن كل ذلك في ضوء سنن الله المبثوثة في عباده وقوانينه الماضية في خلقه وتعبير القرآن عن هؤلاء بالطبع على قلوبهم أو عدم هدايتهم أو تثبيطهم إلى آخر هذه التعبيرات القرآنية عن هؤلاء لا يوهم ذلك أنهم مجبرون على الفسق أو الضلال أو التثبيط عن الجهاد أو عدم العلم إلخ؛ لأن الناظر في هذه الآيات يتأكد له كما يقول الشيخ

١- التوبة: ٥٢ .
٢- التوبة: ١٩ .
٣- التوبة: ٢٤ .
٤- المنار ١١/٨١، ٨٢ .

أن هؤلاء لهم كسب لإحلا ل هذه الصفات بهم كقوله تعالى: "الفاسقين" "الكافرين" "الظالمين" واستخدام المشتق هنا يدل على أن الحكم معلل بما منه إلا اشتقاق فالفاسقون والكافرون والظالمون أسماء فاعلين من الفسق والكفر والظلم وكذلك الطبع على قلوبهم كان لمثل هذه الأسباب ونجد هذه الدلالة أكثر صراحة في مثل قوله تعالى: (**نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ**)[1]، وقوله: (**ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون**)[2] ويوضح الأستاذ الإمام هذه العلاقة بصورة أكثر وهو يتناول الأصول العامة لسورة الأنعام فيقول في الأصل السادس: "الناس عاملون بالإرادة والاختيار ولكنهم خاضعون في أعمالهم للسنن والأقدار، فلا إجبار ولا اضطرار، ولا تعارض بين عملهم بالاختيار وبين مشيئة الله تعالى، ولا يعدون مشاركين له في إرادته وقدرته؛ فإن صفاته تعالى ذاتية واجبة الوجود كاملة، وإرادة العباد وقدرتهم من عطاء الله تعالى وخلقه حسب مشيئته، فهو الذي شاء أن يخلق نوعا من الخلق ويجعله ذا قدرة محدودة ومشيئة تتوقف عليها الأعمال الاختيارية ومعنى خلقه تعالى الأشياء بقدر وتقديره لكل شيء أنه خلقها بنظام جعل فيها المسببات على قدر الأسباب عن علم وحكمة و لم يخلق شيئا جزافا ولا أنفا كما يزعم منكروا القدر فليس

١- التوبة: ٦٧ .

٢- التوبة:١٣٧.

في القدر شيء من معنى الإكراه والإجبار على العمـــل البتـــة" وورود ألفاظ الختم والطبع والأكنة والريب علـــى القلـــوب لا رتبـــا طهـــا بالاستعداد للإيمان في القرآن الكريم ليس نفيـــا لحريـــة الإرادة وإنمـــا لكسب هؤلاء الصفات التي تؤدي بهم إلى هذه النتائج وهذا هو عـــين معنى السنن وفي ذلك يقول الأستاذ الإمام: "ويدخل في هذا الباب سنة الله تعالى وقدره في فقد الاستعداد للإيمان الذي يعبر عنـــه في القـــرآن بمشيئة الإضلال وبالأكنة والختم على القلوب ويوصف أصحابه بالصم البكم العمي ليس معنى هذه السنة أن الله بقدرته طبع علـــى هـــؤلاء بالكفر ابتداء وخلقا أنفا حتى صار تكليفهم بالإيمان عبثا ومن تكليف ما لا يطاق بل هي داخلة في نظام المقدار وارتباط الأسباب بالمسببات إذ هي عبارة عن تأثير أعمال الإنسان في نفسه وتأثير التربية والمعاشرة أيضا فهي إذا أثر كسبه" فلا يظلم الله تعالى عبده مالا يطيق أو يكلفه مالا يتحمل أو يحكم عليه بأشياء لا يستطيع منها فكاكا ولها خلاصـــا بل كل يجري حسب سنة وللإنسان حرية الاختيار فإذا حقق أســـباب الفعل تحققت له أسبابه ونستطيع أن نقول إن رأي الشيخ في المـــسألة تتلخص في أن للإنسان إرادة حرة واختيارا فاعلا وأن سنن الله تعـــالى ماضية وهناك علاقة بين سنن الله تعالى وإرادة الإنسان وإلا لما صـــح تكليفه بالأمر والنهي والفعل والترك.

* * *

المبحث الثامن
العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية

الناظر في جوانب الإعجاز الكوني بما يحويه من دلا لــة قــاهرة وإرادة باهرة وعين لا تأخذها سنة ولا نوم يجد تناسقا بديعا وتشابكا محكما بين هذه الجوانب الكونية الإعجازية الرائعة وجوانب الــسنن التي تحكم سلوك البشر (فالآفاق الواسعة الفسيحة بما تحمل من قوانين ثابتة مطردة وسنن ماضية حاكمة جانب من جوانب الإعجاز الإلهي، الجوانب التي من خلالها يصل الناس إلى الله تعالى. (والأنفس) بما لهــا من قوانين ضابطة تمضي عليها لا تشذ عن ضبطها ولا تنفلت عــن سياجها جناح آخر لهذا اللون من ألوان الإعجاز.

وأقصد بالسنن الكونية الظواهر الكونية التي أسس عليها الكــون من سماوات وأراضين وذرات ومجرات وبحار، وبتعبير القرآن المعجــز (آفاق).

وأقصد بالسنن الإلهية (موضوع البحث) النظام الإلهي في الأفــراد والأمم والشعوب والمجتمعات، والناظر في هذين المجالين يجد ارتباطــا عجيبا وتناسقا بديعا من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.

فقوانين الآفاق التي تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطــراد

وشمول وحاكمية مهيمنة؛ فالماء يصل إلى الغليان عند درجـــة مائـــة، ويتجمد عند درجة الصفر، وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبـــدل؛ بل يعطي نتيجته لكل من يتعامل معه دون نظر إلى طبيعة من يتعامل معه؛ ذلك لأنه قانون ماض على الجميع لا يحـــابي ولا يجامـــل ولا يستثني، وكما يمضي هذا النظام الإلهي في جوانب الكون الإعجازية بثبات واطراد وعموم وعدم تبدل أو تحول يمضي أيضا في جوانـــب الحكم على أفعال البشر في الحياة، فإن مصدر هذه القوانين الكونيـــة وتلك القوانين الإلهية في الأمم والأفراد واحـــد وهـــو الله ســـبحانه وتعالى، وهناك ارتباط وتآخٍ بين المجالين، المجال الكوني بما فيـــه مـــن جوانب الإعجاز والنظام والجانب البشري بما فيه من سلوك البـــشر وأفعالهم[1].

ولقد عني الأستاذ الإمام برصد هذا التطابق بين قوانين الله تعـــالى في الأنفس وقوانينه في الآفاق والذي لخصته الآية الكريمة: (**سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)[2] فيذكر رحمه الله هذا التزاوج بين

١- مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلي التسخير ص٩٧، ط: دار التوزيع والنـــشر الإسلامية ط أولى ١٤٢٦ /٢٠٠٥ رمضان خميس.

٢- فصلت: ٥٣ .

سنن الله في كونه وسننه في خلقه بقولـــه: "إن لله تعـــالى في نظـــام التكوين والإبداع وفيما هدي إليه من نظام الاجتماع سننا مطـــردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس وأنها عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح ونؤمن بأن له تعالي في خلقه آيات بينات وأن له في آياته حكما جلية أو خفية وأن مـــا منحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء مـــن الخلق علي خلاف نظام التقدير وسنة التدبير إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه وأنه لابد أن يكون وقوعه لحكمـــة بالغة لا عن خلل ولا عبث وأن ما خفي علينا من حكمه كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه نبحث عنها لنـــزداد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ولا نتخذها حجة ولا عذرا على الكفر به لجهلنا وقد ثبت لأعلم العلماء منا أن ما نجهله من هذا الكون أكثـــر مما نعلم ويستحيل أن يحيط البشر به علما"[1] بهذه الصورة يوضـــح الأستاذ الإمام التطابق بين سنن الله تعالى في الكون وسننه في الإنسان ويرى الشيخ رحمه الله أن العلم بسنن الله تعالى في الكون مثل العلـــم بسنن الله تعالى في الإنسان طريق إلى معرفته عز وجل "فالعلم بذلك كله من معرفة آيات الله وكمال صفاته ما يعطي متأملـــه الـــيقين في

١- تفسير المنار ١٠ /١٩٨ .

الإيمان إذا قصده ويغدق عليه من نعمه التي من عليه بها ويعده لشكرها فيتجمع له بذلك سعادة الدارين وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا علي أكثر خيرات الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضاع الجهل دنياهم ودينهم بالتبع لها"[1] من هنا نري كيف يرشد الأستاذ الإمام إلي مدي التطابق بين السنن الكونية والسنن الربانية وأن إدراك السنن الكونية طريق إلي معرفة الله- عز وجل- وعمق اليقين في الإيمان به وأن إدراك الإنسان لها يجمع له سعادة الدنيا وعزها وفوز الآخرة وهناءها.

* * *

١- تفسير المنار ٩ /٤٧٨ .

المبحث التاسع
العلاقة بين الأسباب والسنن

الأسباب جمع سبب والسبب ما يتوصل به إلى غيره وهناك علاقة واضحة بين الأسباب والسنن فالسبب طريق السنن يتوصل به إليها ولا طريق إلى السنن إلا به وقد جعل الله – تعالى – لكل سنة سبيلها الذي يتوصل به إليها وطريقها الذي يستدل به عليها.

فهم المسلمون الأوائل ذلك فكثر في كلامهم إشارات إلى العلاقة الكبرى بين السنن والأسباب والعروة الوثقى بين كل سبب وثمرته فشاع في كلامهم مثل "علامة الإذن التيسير" و "إذا أراد الله أمرا هيأ له الأسباب".

وقد عني الأستاذ الإمام – رحمه الله – في تفسيره وتفكيره بإظهار هذه العلاقة بين السنن والأسباب حتى يعي الإنسان عامة والمسلم خاصة أن لكل شيء سببا فيتبع سببا، فيقول مثلا وهو يوضح أثر هذا الترابط بين السنن والأسباب في سعادة الإنسان أو شقائه وبقائه أو فنائه: "لقد نادى الكتاب الكريم بأن نظام البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام وأن يرد إليها أعماله ويبني

عليها سيرته وما يأخذ به نفسه فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء وإن ارتفع في الصالحين نسبه أو اتصل بالمقربين سببه"[١].

وعندما يتناول الحديث عن الاستعانة والعبادة في تفسير سورة الفاتحة يرشد إلى هذه العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة فيقول: "إن الاستعانة ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة فإن من معنى العبادة الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة هي لله وحدة... فمن كان موحدا خالصا لا يستعين بغير الله تعالى قط فما كان فمن أنواع المعرفة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى ولكنه يحتاج في تحقيق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي وما كان غير داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجا ب وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها بل الكمال الأدب في الجمع بينهما"[٢].

ويؤكد الأستاذ الإمام – رحمه الله – على أن السنن موقوفة على الأسباب والأسباب ممكنة للإنسان لأنها سلسلة متصلة الحلقات منتظمة الخطوات فإذا أخذ الإنسان بالأسباب وصلت به إلى السنن

١- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٥٤-٥٥ .
٢- المنار ١-٥١ .

وإن أغفلها مضت عليه السنن بنقيض مراده في غير خوف ولا وجل "فكل عمل للإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه وانتفاء الموانع الـــتي مـــن شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه وقد مكن الله تعالى الإنسان بمـــا أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ونبذل في إتقان أعمالنا ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعـــاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كـــسبنا إلى القادر على كل شيء ونلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه وتعالى دون سواه إذ لا يقدر على مـــا وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب"[١].

الأسباب والسنن من عند الله:

استمرارا لهذا التوافق بين السنن والأسباب وأنه لا تناقض بين هذه وتلك وإيضاحا لهذه الصورة يؤكد الأستاذ الإمام علـــى أن مـــصدر السنن والأسباب واحد وهو الله عز وجل فلا تنافر ولا تناقض فيقول -رحمه الله- وهو يتناول قوله تعالى: (**وَإِن تُصِبْهُمْ حَـــسَنَةٌ يَقُولُـــواْ**

١- السابق ١/٤٩ .

هَـــذه منْ عند اللّه وَإِن تُصبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـــذه منْ عندكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عند اللّه فَمَا لِهَـــؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾[1]: كان المنافقون والكفار من اليهود وغيرهم إذا أصاب الناس في المدينة سيئة بعد الهجرة يقولون هذا من شؤم محمد فقال الله تعالى قل لهم يا محمد إن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله لوقوعها في ملكه على حسب سننه في نظام الأسباب والمسببات "فما لهـــؤلاء القـــوم لا يكـــادون يفقهون حديثا "وإذا أصاب عقولهم حال كونها بمعزل عن الغوص في أعماق الحديث وفهم مقاصده وأسراره فهم لا يعقلون حقيقة حديث يلقونه ولا حقيقة حديث يلقى إليهم قط وإذا كانوا قد فقدوا هـــذا الفقه وحرموه من كل حديث فأجدر بهم أن يحرموا من حديث يبلغه الرسول "عن وحي ربه في حقيقة التوحيد ونظام الاجتماع وسنن الله في الأسباب والمسببات فهذه المعارف العالية لا تنال إلا بفضل الروية وذكاء العقل وطول التدبر ومن نالها لا يقول بأن سيئة تقع بـــشؤم أحد وإنما يسند كل شيء إلى السبب أو إلى واضع الأسباب، والسنن ولكل مقام مقال"[2] فهناك أسباب تؤدي إلى المسببات ومقدمات تلد النتائج ولكن هذه الأسباب وحدها وتلك المقدمات بمفردها لا تنتج

١- النساء: ٧٩ .

٢- تفسير المنار ٥ /٢١٧ .

إلا بإرادة الملك القاهر الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، "إن الأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها؛ ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء (**لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً**)[1]، (**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**)[2] والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها... إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة.. (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**)[3].

الإنسان بين الأسباب والسنن:

إن حركة الإنسان بين الأسباب والسنن حركة محسوبة وموزونة لها منافعها العظيمة إن أحسن وأجاد ولها عواقبها الوخيمة إن أساء التصرف وتنكب الصراط المستقيم يوضح الأستاذ الإمام هذا المعنى

١- الطلاق آية ١ .

٢- الإنسان من الآية ٣٠ .

٣- القصص من الآية ٦٨ . وانظر الظلال ج / ١ص١٣ من المقدمة، ط: دار الشروق، ط التاسعة ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

فيقول: "إن كل شيء من عند الله بمعنى أنه خالق الأشياء التي هي موارد المنافع والمضار وأنه واضع النظام والسنن لأسباب الوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان وكل شيء حسن بهذا الاعتبار لأنه مظهر الإبداع والنظام، والإنسان لا يقع في شيء يسوؤه إلا بتقصير منه في استبا نة الأسباب وتعرف السنن فالسوء معنى يعرض للأشياء بتصرف الإنسان وباعتبار أنها تسوؤه وليس ذاتيا لها ولذلك يسند إلى الإنسان إن الإنسان فضل على غيره من الكائنات بما أوتي من الاستعداد للعلم ومن الإرادة والاختيار في العمل فإذا أحكم العلم وأحسن الا ختيار مهتديا بسنن الفطرة وأحكام الشريعة وهي كلها من عند الله ومحض فضله ورحمته – كان مغمورا في الحسنات والخيرات وإذا قصر في العلم وأساء الاختيار في استعمال قواه وأعضائه في غير ما يقتضيه نظام الفطرة وحاجة الطبيعة وقع في الأمور التي تسوؤه فيجب عليه أن يرجع إلى نفسه بالمحاسبة والمعاينة كلما أصابته سيئة ليعتبر بها ويزداد علما وكمالا"[1] إذا فللإنسان دور في استكشاف الأسباب والوصول من خلا لها إلى السنن فإن أحسن البذل والجهد نال ماتمنى بقدر ما تعنى وإن كانت الأخرى فخير تفلت من بين يديه بنكوصه على عقبيه ويؤكد الشيخ علي هذه الفكرة بأن "للإنسان عملا في

١- المنار ٥ / ٢٢٠ .

الأسباب فإن أحسن وأصاب كانت له الحسنة والفضل لله في ذلك وإن أخطأ وأساء كانت له السيئة بخروجه عن تلك السنن وتقصيره في تلك الأسباب"[1].

وخلاصة الأمر:

أن الأسباب مقدمة السنن والسنن ثمرة الأسباب فمن أخذ بسبب سنة من السنن مضت إليه وانتفع من خيرها وعطائها ومن أغفل السبب انحرفت السنن من يديه و لم يأته منها قليل ولا كثير وأن السنن والأسباب متوافقة غير متنافرة لأنها تصدر عن مشكاة واحدة وتخرج من مصدر واحد وهو إرادة الله تعالى. وللإنسان دور في هذه الأسباب والسنن تأتيه حسب دوره هذا بين الأسباب والسنن وحسب ما يسره الله تعالى له من إدراك السنن وتوظيف الأسباب لتكون له لا عليه وأن تخدمه لا أن تستخدمه.

* * *

١- السابق ٥ /٢٢٠ .

المبحث العاشر
موارد السنن الربانية
فى فكر الإمام محمد عبده

للسنن الربانية التى عنى القرآن الكريم بالحديث عنها وأكثر من لفت أنظار الناس إليها – موارد إذا طلبها الإنسان وصل إليها دون لبس أو التواء وقد حفل القرآن الكريم بهذه المواطن التى يكثر فيها ظهور السنن والتي نعبر عنها بموارد السنن الربانية فى القرآن الكريم.

ومن هذه المظان وتلك الموارد:

١ – القصص القرآني:

الذي ما تختم قصة من قصصه إلا بإعطاء سنة من سنن الله تعالى فى خلقه وقانون من قوانينه عز وجل فى عباده واذكر إن شئت قوله تعالى يصور جانبا من جوانب قصة نبي الله يوسف – عليه السلام (**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**)[1] أليس هذا اختزالاً للعاقبة المرتبة على الصبر والتقوى والتي يعبر عنها بسنة الله فى الصابرين والمتقين وعندما نقرأ قول الله تعالى فى نهاية السورة الكريمة: (**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً**

١- سورة يوسف من الآية ٩٠.

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1] وفى نهاية قصة قارون وما دار فيها بينه وبين قومه تجد قول الله تعالى: (**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)**[2].

المثل القرآنى:

ومن المواطن التي يكثر فيها وجود السنن فى القرآن الكريم المثل "وقد حرص القرآن الكريم على تصوير معانيه وعرض قضاياه بأقرب صورة وأوضح سبيل فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة وتضمنت هذه الأمثال بتركيبتها المعروفة عددا من السنن الثابتة والقوانين الماضية حتى لا يكاد يخلو مثل من أمثال القرآن الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب على قانون ولم لا وأصل وظيفة المثل في مضربه تصوير حالة حاضرة بحالة ماضية وإعطاء اللاحقة حكم السابقة لتشابه أطرافها واتحاد أحوالها وكثر فى القرآن ضرب الأمثال وربطها بالقصة والاعتبار فقد ورد المثل فى القرآن الكريم ما يزيد على مائة مرة وهذا بلفظ المثل ومشتقاته عدا الصور الأخرى التى ورد عليها المثل فى القرآن الكريم[3].

١- سورة يوسف آية ١١١.

٢- سورة القصص آية ٨٣.

٣- انظر مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير، ص٧٥، ٧٦، د.رمضان خميس الغريب، بحث منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة جامعة الأزهر العدد الثالث والعشرون ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

٣- الآيات التي ورد فيها الأمر بالسير فى الأرض:

ومن المواطن التى يكثر فيها ورود السنن الربانية الآيات التى تأمر بالسير فى الأرض للنظر والاعتبار وقد كثرت هذه الآيات فورد الأمر بالسير فى الأرض أربع عشرة مرة بصور متعددة منــها التحــضيض ومنها الأمر ومنها لفت أنظار الناس إلى قيمة هذا السير ففيه الوقوف على أحوال الماضين ومصارع الغابرين وغالباً تأتى السنن بعد هــذا الأمر.

وعندما نقلب فكر الأستاذ الإمام لنرى موقفه من هــذه المــوارد الثابتة للسنن الربانية نجد أنه ضمن عنايته الفائقة بالــسنن وأهميتــها وقف عند عدد من النقاط والموارد ومنها:

١- الأمر بالسير فى الأرض والاعتبار بمن كانوا

وهذا باب من أعظم أبواب إ دارك السنن لأنه لا يقف عند علم اليقين بل يصل إلى علم اليقين.

من هنا يتتبع الأستاذ الإمام الآيات التى فيها أمر بالــسير ويقــف عندها طويلاً علها تلفت أنظار المسلمين فتتغير أحوالهم ويفيدوا مــن مضامين القرآن الكريم كما أفاد سلفهم السابقون فيقــول – رحمــه الله- والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حــل بهم هو الذى يوصل إلى معرفة السنن والاعتبار بها كما ينبغي، نعــم إن النظر فى التاريخ الذى الذي يشرح ما عرفه الــذين ســاروا فى

الأرض ورأوا آثار الذين خلو يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ويفيده عظةً واعتباراً، ولكن دون اعتبار الذى يسير فى الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه لذلك أمر بالسير والنظر[1].

وهذا النص من كلام الأستاذ الإمام – رحمه الله – دال على أن السير فى الأرض أعظم طريق من طرق الوصول إلى سنن الله تعالى فى الأنفس ولا يعدله طريق آخر لأنه طريق معاينة تقيم الحجة على صاحبه وتبصره بعيني رأسه بأمم مضت وقرون خلت أخذت بمقدمات هدتها إلى نتاج وكل من سار سيرتها الأولى وصل إلى ما وصلت إليه. ويؤكد – رحمه الله – على هذا المعنى عندما يتناول قول الله تعالى: (**قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)[2]، فيقول: "فسيروا فى الأرض واستقرؤوا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك وهو الذى يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل به"[3].

ويؤكد – رحمه الله – تعليق الأمر بالسير على عدم التصديق، وهو المعنى الذى ذهب إليه بعض المفسرين[4]، فيقول: وقال بعض

١- المنار ج ٤ ص ١١٧.

٢- سورة آل عمران آية ١٣٧.

٣- المنار ج٤ ص ١١٧.

٤- ومن هؤلاء المفسرين الإمام الطبري في جامع البيان ويرى الجلال أن المراد بهم المؤمنون وانظر تفسير هذه الآية عند كليهما.

المفسرين أى إن لم تصدقوا فسيروا.... وهذا قول باطل[1]، فهو يرى أن الأمر بالسير والنظر ليس لغير المصدقين الشاكين بل هو أمر عـــام وظاهر الآيات كما هو واضح أنها موجهة إلى أصحاب النبي كفكفة لآلامهم وتضميدا لجراحهم بعدما أصابهم في أحد فكـــأن الله تعـــالى يقول لهم: إن ما حصل لكم من الانكسار بعد الانتصار والهزيمة بعد النصر ليس بدعا ولا غريباً بل هو سنة من سنن الله تعالى فى عبـــاده، وسيروا فى الأرض لتتأكد لديكم هذه المعرفة وتصل إلى درجة عـــين اليقين.

ويرفض - رحمه الله — السير لمجرد السير ويرى أن القرآن عنـــدما أمر بالسير والنظر أراد منه النظر الفاعل المنتج الذى يؤدى إلى مزيـــد من كمال وارتقاء وأننا لو وقفنا عند ظاهر الكون وانتهينا من علـــم الكون بنظرة فى ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بمـــا حواه من علم وحكمة[2].

علم التاريخ وأحوال البشر:

ومن المواطن التى يذكرها الأستاذ الإمام — رحمـــه الله — لمعرفـــة السنن علم أحوال البشر ويرى أن الله تعالى أنـــزل هـــذا الكتـــاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غـــيره كـــأحوال الخلـــق

١- المنار ج ٤ ص ١١٧.
٢- انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢١ بتصرف كبير.

وطبائعهم والسنن الإلهية فى البشر ــ فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم ومنا شيء اختلافهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج هذا إلى علوم كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه[1] وينقل الأستاذ رشيد رضا – رحمه الله – فى المنار عن الأستاذ قوله: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: (**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**)[2] وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها وهل كانت نافعة أم ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم[3]. فعلم أحوال البشر أو التاريخ من المواطن التى يتعرف منها على سنن الله – تعالى– في الإنسان فإنه يحدث للاحق ما يحدث للسابق ويجرى على الثاني ما جرى على الأول إذا مضى على سننه وسار على طريقته.

٢– القصص القرآني:

من موارد السنن التى تحدث عنها الأستاذ الإمام – رحمه الله – كذلك القصص ففيه رصد لسنن وقوانين قد تتكرر مع اللاحقين

١– انظر تفسير المنار ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف وترتيب.
٢– سورة البقرة آية ٢١٣.
٣– انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢١ بتصرف يسير.

كما وقعت مع السابقين يقول الأستاذ الإمام – رحمه الله –: أنـزل الله تعالى هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبين فى غيره بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية فى البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم السابقة وسيرها والموافق لسننه فيها......... وأجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته فى السماوات والأرض وفى الآفاق وفى الأنفس وهو إجمال صادر عن من أحاط بكل شيء علما[1].

٣- النظر فى الكائنات وأحوالها والتعمق فى دراستها:

كما يرى الأستاذ الإمام – رحمه الله – أن من وسائل الوصول إلى معرفة السنن البحث فى علوم الكائنات وجعل ذلك أصلاً من الأصول التى دارت عليها سورة الأنعام وهو الترغيب فى علوم الكائنات والإرشاد إلى البحث فيها لمعرفة سنن الله وحكمته وآياته الكثيرة فيها الدالة على علمه وحكمته ومشيئته وقدرته وفضله ورحمته ولأجل الإفادة منها على أكمل الوجوه التى ترتقي بها الأمة فى معاشها وسيادتها[2].

ويهيب الأستاذ الإمام – رحمه الله – بالأمة خاصة والإنسان عامة بأن يعمق نظره فى هذه الكائنات التى أبدعها الله تعالى "فيرى أن

١- تفسير المنار ج١ ص ٢٠ ، ص ٢١ بتصرف واختيار.
٢- انظر تفسير المنار: ج ١ ص ٢٥٦ ، ص ٢٥٧.

سنن الله تعالى فى إبداع خلقه لا يحيط بها إلا الله تعالى ومـــع ذلـــك فكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً واختياراً وتدبراً وتجربة ونفعـــاً ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون أو يتوهمون"[١].

والخلاصة:

أن الأستاذ الإمام عنى بالحديث عن موارد السنن الربانية وطـــرق الوصول إليها وقد رصد عدداً من هذه الموارد والطرق منه القـــصص القرآني ودراسته والاتعاظ بما فيه، والسير فى الأرض وتعرف أحـــوال الأمم الماضية والاعتبار بحالها ومآلها، والنظر فى التـــاريخ وأحـــوال البشر، والنظر فى علوم الكائنات هذا الكتاب المنظور الذى يتطـــابق مع الكون المسطور سواء بسواء.

* * *

١- انظر تفسير المنار: ج ١١ ص ١٩٥.

المبحث الحادي عشر
الإنسان بين إدراكه للسنن وتوظيفه لها

الإنسان هو خليفة الله في أرضه استعمره فيها واستخلفه من قبله عليها ومهد له سبل الانتفاع بها ووسائل التعيش معها وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع بها وجعل ذلك نعمة من نعمه عليه ومنة من مننه لديه تستحق التسبيح والذكر بل العبادة والشكر فقال تعالى: (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى**)[1].

لقد هيأ الله عز وجل الإنسان بطريقة تجعله أقدر على التعايش مع معطيات الحياة التي يحياها والدنيا التي يجوبها والأرض التي استعمره فيها فهيأ له السمع والبصر والفؤاد وجعل إدراكه لما حوله سببا من أسباب سيادته في الأرض من قبله- تعالى- عليها، بل من عليه وأرشده إلى هذه النعمة؛ نعمة الإدراك التي من خلالها يستطيع توظيف الحياة بما فيها ومن فيها لصالحه، ليوظف نفسه لعبادة الله وحده لا يشرك به شيئا، (**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ**

١- الأعلى: ١-٥.

تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1] ولفت نظر الإنسان – هذا المخلوق الضعيف إلى هذه الظواهر الكونية التي سخرها الله تعالى له من ماء ينزل من السماء ونبات تنشق عنه الأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبحر يستخرج منه حلية يلبسها، وحددت سورة النحل في شريحة رائعة من شرائحها علة هذا التسخير كله مترقية بالإنسان إلى قضية عقلية وعقدية راسخة هى أن من يخلق ليس كمن لايخلق فيقول تعالى: (**هُوَ الَّذي أَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُون يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**

---

١ – النحل: ٧٨.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّــهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1] فهل ترى أيها الإنسان الكريم أن تسخير هذه النعم والمد بهذه الآلاء يكون عبثا بلا هد ف أو ســدى بلا قصد وغاية إن كل هذه الظواهر الكونية المسخرة للإنسان إنمــا هي نوع من التهيؤ والإعداد ليستطيع من خلالها أن يــدرك الليــل والنهار والأمس واليوم والغد وليدرك ما حدث في أمسه ليفيد منــه في يومه ويوظفه في غده وهل إدراك السنن غير هذا المعنى من معــاني الإدراك؟.

لقد عني الأستاذ الإمام بهذه القضية قضية إدراك الإنسان بــصفة عامة والمسلم بصفة خاصة لسنن الله تعالى في خلقه فيقــول عنــدما تناول قوله تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِــي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ**)[2] "إن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى في الأمم وأحق الناس بالسير على طريقها بين الأمم ذلك أن كل إنسان له عقل يعتبر به يفهــم أن الــسير في الأرض يدل على تلك السنن ولكن المؤمن المتقي أجدر بفهمهــا لأن كتابه أرشده إليها وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها فإن لــسير

١- النحل: ١٠-١٨.
٢- آل عمران: ١٣٧.

الناس في الحياة سننا يؤدي بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء وأن من يتبع تلك السنن فلابد وأن ينتهي إلى غايتها سواء كان مؤمنا أو كافرا"[1] ويؤكد –رحمه الله – على أن كل إنسان مهيأ لإدراك السنن سواء كان مؤمنا أو كافرا بقوله: "وما ذكر من أن لله تعالى سننا في الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه إلا أن يترك النظر أو يكابر أو يعاند"[2] لكنه يركز على أن أحق الناس بالانتفاع والاهتداء بهذه السنن هم المسامون بقوله: "أما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة ويتعظون بما ينطبق عليهم من الوقائع فيستقيمون على الطريقة وهم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة لأنهم يتجنبون ويتقون نتائج الإهمال التي يظهر لهم أن عاقبتها ضارة" وينعى –رحمه الله – على المسلمين عدم إدراكهم للسنن التي هيأهم الله تعالى لإدراكها وتوظيفها وإحسان التعامل معها في الوقت الذي سبقهم إلى هذا التعامل الغرب الكافر البعيد عن وحي السماء فيقول: "فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم

١- انظر تفسير المنار ج٤ ص١١٦ و١١٧ بتصرف واختيار .

٢- السابق ج٤ ص١١٨ .

بهذه الآيات[1] الآمرة لهم بالسير في الأرض والتفكر في أحوال أهلها، ولينظروا أين مكانهم من هدايته وما هو حظهم من موعظتها، أما إنهم لو فعلوا فبدأ و ا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن الله تعالى وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرا في الأرض وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين فهل يليق بمن هذا كتابهم أن يكون من يسمونه بعداوته أقرب إلى هدايته هذه منهم؟ كلا إن المؤمن بهذا الكتاب هو من يهتدي به ويتعظ بمواعظه، ولذلك جعل الهداية والموعظة من شؤون المتقين الثابتة لهم والمتقون هم المؤمنون القائمون بحقوق الإيمان"[2] بهذه الصورة الواضحة والمعاني الظاهرة يؤكد الأستاذ الإمام على أن الإنسان مطلق إنسان مهيأ بفطرته لإدراك سنن الله تعالى في كونه وقادر على توظيفها والتعامل معها وأن المسلمين بصفة خاصة ينبغي أن يكونوا أكثر الناس اهتداء بهذه السنن وانتفاعا بتلك الضوابط الصارمة والقوانين

١- وهى قوله تعالى: قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...الآيات .
٢- المنار ج٤ ص١١٦ -١١٩ بتصرف واختيار .

الماضية وذلك بدعوة كتابهم الخالد إلى النظر في سنن الله والتعامـــل معها.

* * *

الخاتمة نسأل الله حسنها

وبعد فهذه رحلة شائقة مع قضية لو وعاها المسلمون لتغيرت حالهم وإمام مصلح يحتاج إلى إعادة النظر فى فكره الذى ظلم فى حياته وبعد مماته بان من خلالها

- أن الأستاذ الإمام محمد عبده كان من أكثر الناس حديثا عن السنن الربانية وفقهها وضرورة تدوينها وإحسان التعامل معها.
- أهمية دراسة السنن الربانية ومدى قصور إفادة المسلمين منها.
- أن هذه السنن نالت حظا وافرا من عناية النبى (ﷺ) سواء من الناحية النظرية والبيانية أو من الناحية العملية التطبيقية وسيرته (ﷺ) خير شاهد على ذلك.
- أن الصحابة الكرام عنوا بهذه السنن وطبقوها فى حياتهم واستفادوا منها والذى يتابع حربهم وسلمهم وخطبهم ومحاوراتهم يدرك ذلك.
- أن لهذه السنن خصائص وسمات منها الاطراد والشمول والعموم وعدم التبدل أو التحول.
- أن العلاقة بين المشيئة والسنن علاقة حميمة تتآلف ولا تتخالف وتتعاضد ولا تتعارض.

- أن موارد السنن تكمن فى المثل القرآني والقصة القرآنية والآيـــات الآمرة بالسير فى جنبات الأرض وأن إدراكها يحتـــاج إلى تفكـــر وتتبع.
- أن الإنسان مهيأ لإدراك السنن بما منحه الله تعالى من خـــصائص وهيأ له من نعم ولا يغفل عن إدراكها إلا غائب عن الإدراك.
- أن هذه السنن تحتاج إلى عقول واعبة وأقـــلام واعيـــة لتظهرهـــا وتدونها حتى تخدم الأمة فى ظروفها الراهنة وتهيئ لهـــا المـــستقبل المنشود.

والله من وراء القصد

* * *

أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيا:

- إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي ط: عيسى البابي الحلبي
- الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للأستاذ الإمام محمد عبده، ط: مكتبة صبيح، بدون تاريخ.
- الإمام محمد عبده، د. محمد البهي، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٥ العدد ١١٦.
- تفسير الجلا لين،لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، ط: دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- تفسير المنار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٧٣
- تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده، ط: الثالثة ١٣٤١هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن الإمام الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، لأبي عبد الله القرطبي، ط: دار الكتاب العربي القاهرة، ط الثالثة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- سنن الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لمحمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد شاكر وآخرين.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط الثالثة،١٤٠٧هـ/١٩٨٧.
- الفلسفة القرآنية، للعقاد، ط: دار الهلال.
- مجلة الأزهر ج٨ السنة ٧٨ عدد شعبان ١٤٢٦هـ.
- محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي، د. رمضان خميس الغريب، ط: دار الحرم للتراث ٢٠٠٣، ط أولى.
- مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير بحث منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية ج. الأزهر - القاهرة العدد٢٣ د.رمضان خميس الغريب.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *